كبسة دجاج

علاء سعد حميده

2

3

وكبسة الدجاج وجبة دوليّة بامتياز..
تتخطّى حدود المحليّة والإقليميّة
بمراحل..

مقادير كبسة الدجاج

واحد دجاجة برازيلي أو فرنسي
واحد كيلو أرز أمريكي طويل الحبة (بسمتي)
٥٠ جرامًا هيل هندي
٥٠ جرامًا توابل حارة باكستاني
نصف كيلو بصل أحمر مصري
خمسة ملاعق زيت زيتون فلسطيني أو أردني
١٠٠جرام زبد دنماركي أو هولندي
رأس ثوم صيني
١٠٠ جرام صنوبر لبناني أو أمريكي
١٠٠ جرام زبيب إيراني
١٠٠جرام حمص شامي
شعرة من زعفران إيراني أو أمازيغي مغربي
المقبِّلات:
ربع كيلو زيتون مغربي معطون
علبة لبن زبادي إنتاج محلي
خيار - ليمون - شطة - طماطم إنتاج محلي أو شامي أو تركي.

6

١ - الرحيل

تتحرَّك حركة قلقة سريعة غير مستقرة في المطبخ.. تروح وتجيء بين الثلاجة والموقد والحوض.. تلتقط شيئًا أو أشياءَ.. وتُلقي صحنًا أو إناءً فوق حوض الماء.. وتعود فترفع النار في الموقد أسفل إناء تسمع صوت غليان ما بداخله.. تأخذ الملعقة الكبيرة تقلِّب محتويات الإناء.. ثم تعود فتُخفض النار.. وتتحرَّك بقلق ناحية الثلاجة.. تفتح دُرج التجميد تعبث بمحتوياته شاردة بغير هدف.. تعود فتفتح أدراج الثلاجة بسأم.. لا تجد ما تبحث عنه.. تكبس زر المسجِّل الصغير الموضوع أعلى الرف لتنطلق أغنية لم تكن تدرك من قبل أنَّها بهذا القدْر من الشجَن والحزن:

يا مسافر وناسي هواك

ريداك.. والنبي.. والنبي رايداك

تنساب دموعها حارة على وجنتيها.. تسمع صوت حركة بالقرب من باب المطبخ.. ترفع كُم جلبابها المنزلي

الواسع إلى عينيها تحاول أن تمسح أثر الدموع ..
يتنحَنح قبل أن يقول وهو ما زال واقفًا بعتبة الباب:

- دعيه يسافر.. الرزق يُحب الخفَّة والحركة والسفر.

تقول بانزعاج حقيقي وهي تشيح بوجهها عن زوجها:

- يسافر.. وهل تراني مقيِّدة يديه.. فليفعل ما يشاء.. يسافر يا سيدي..

زام الزوج ثم هتف يمط كلماته:

- يا أُم سامي..

قالت تداري انفعالها:

- نعم يا أبا سامي؟!
- وهل أنا غريب عنكِ وعن تصرفاتكِ وانفعالاتكِ! نحن عِشرة ثلاثين عامًا..
- يوه يا أبا سامي.. قلب الأُم.. وما أدراك ما قلب الأُم..
- أريد أن أقول لكِ قاعدة يا أُم سامي.. وأعرف مقدَّمًا أنَّكِ ستجادلينني كعادتك، ولن تسلِّمي بها أبدًا ولو كانت قاعدة اجتماعية لها شأنها..

- وهل هذا وقت فلسفة يا رجل؟

قال متجاهلا تعليقها:

- الأُمهات دائمًا يردِّدن قلب الأم.. قلب الأم.. والحقيقة الاجتماعية تقول أنَّ الولد، خاصة الولد الأكبر هو سر أبيه.. فما بالكِ بابنٍ مثل سامي؟

إنَّه قطعة مني.. ورث مني أغلب صفاتي وخصالي.. تألُّمي لفراقه يفوق تألُّمك بكثير.. لكنِّني رجل أتجلَّد..

أطلقت الأُم صيحة احتجاج حادَّة وهي تخبط بكفِّها على صدرها وتقول بصوت متحشرج:

- ما هذا الكلام الذي تقول يا رجل؟ قلب الأُم هو قلب الأُم.. وحقًّا صدق من قال.. قلبي على ولدي انفطر، وقلب زوجي عليَّ حجر..

ابتسم رغمًا عنه وقال:

- يا شيخة.. وهل قالوا (قلب زوجي)؟!

تقدَّم خطوتين إلى زوجته وطبع قُبلة حانية على مفرق رأسها.. وقال في حنان وصوته يغلبه التأثّر:

- استعيني بالله يا أُم سامي ولا تُظهري لوعتكِ

للولد.. دعيه يذهب غير مشغول البال.. وكلها أيام ويعود إلينا مجبور الخاطر إن شاء الله..

غمغمت الأُم بكلمات مبهمة.. وانصرفت تتشاغل بالإناء أعلى الموقد.. ترفع النار أسفل منه تارةً.. وتارةً أخرى تخفضها.. دون أن تلوي على شيء..

انسحب الأب.. وعاد يجلس في مقعده المعتاد في الصالة أمام المنضدة الكبيرة.. فتح المصحف الموضوع فوق الحامل على المنضدة.. وعاد يقرأ آية ما فتئ يردِّدها منذ أيام:

"ومن يُهاجرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مُراغَمًا كثيرًا وسَعَة"

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ترفع عينًا مغرورقة بالدموع إلى وجه حبيبها.. تعجز الكلمات أن تعبِّر.. ليس مسموحًا لهما بالخلوة الكاملة بعد.. باب غرفة الجلوس موارب موحيًا بإمكانية دخول أحد أفراد الأسرة في أي لحظة.. على أنَّه لم يسبق ودخل عليهما أحدٌ دون أن يدقَّ على الباب برفق.. ويظل

الباب الموارب حاجبًا رؤية التفاصيل بين الحجرة وباقي أنحاء البيت.. مسندةً وجهها على صدره وهي تبكي بكاءًا ساخنًا تحاول أن يكون في صمت.. يكتفي بأن يمسح على شعرها الأسود الناعم المنساب على كتفها في رقَّةٍ وحنان.. يمد كفه إلى ذقنها.. أصابعه تتتبع بلل الدموع تمسحها برفق.. يرفع وجهها إليه أكثر.. كُحل عينيها الذي سال على وجنتيها مع سخونة الدموع.. وشعرها المنتفش من احتكاك وجهها بصدره وهي تنتحب.. وأثر كفِّه بين خصلاته الحريرية.. يمنحها منظرًا للوحة غجرية الجمال لا تُقاوم.. شفتيها المكتنزتين الملتهبتين احمرارًا وحرارة تضطرمان في تردّدٍ ووجل.. اشتهاها في هذه اللحظة كما لم يشتهها من قبل.. ولا حتى في أشدّ أحلامه عنفوانًا وجرأة.. صمت كل شيء.. والتقت الشفاه.. انحلَّ جسدها البضّ على صدره.. يطوِّقها بذراعين قويتين.. كأنَّه يخشى أن تتفلَّت من بين يديه إلى الأبد.. غابا عن الباب الموارب.. وعن الدقَّات التي يمكن أن تدقَّه برفق.. وعن معالم الغرفة.. وعن الوجود..

أفراد أسرتها كانوا رحماء بهما.. تركوا لهما حريّة الوداع الأخير قبل الرحيل المرّ..

11

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

لأنَّه اختار موعد سفره في العشر الأواخر من شهر رمضان، فلم يكن مسافرًا وحده.. آلاف الطيور المهاجرة تتحرَّك معه.. أغلبها يقصد العودة السريعة بعد أداء عُمرة رمضان.. وبعضها خرج مثله بحثًا عن الرزق والعمل، وعالم جديد يتخلَّص فيه من قيود البطالة والإحباط واليأس والسأم والفراغ وقلَّة ذات اليد، أو العجز عن تلبية طموحات الشباب وتحدِّيات الواقع وأحلام المستقبل القريب..

في الحافلة منذ تحرَّكت من مدينته الحبيبة قاهرة المعزّ.. مدينة الألف مئذنة.. من جوار مطار ألماظة بمصر الجديدة.. وبدأت مشاهد رمال الصحراء الممتدَّة على جانبي الطريق أمامه بلا نهاية.. يشعر بالرتابة والملل.. يحدِّث نفسه:

- ما زال الوقت مبكِّرًا جدًّا عن الشعور بالرتابة والملل.. ما زلنا في أول الطريق..

طريق بدا هو الآخر بلا نهاية، كما الصحراء الممتدّة أمامه في الأفق..

يسند رأسه إلى زجاج النافذة ويغمض عينيه.. يعلم أنَّ النوم أمل صعب المنال في هذه اللحظات.. رغم الصيام طعم المرارة يملأ فمه.. يترك أثرًا بغيضًا على لسانه.. يزيد شعوره بالانقباض.. ويغذِّي لديه شعورًا مبكِّرًا بالعطش..

- تجلَّد يا سامي إنَّ اليوم ما زال طويلا..

ترفُّ صورتُها على خاطره.. تملأ الفضاء أمامه..

لم تكن صورة في هذه اللحظة.. إنَّه وجهها نفسه.. ابتسامة عينيها المكحولتين.. شفتاها المكتنزتان الشهيتان كثمرة فاكهة طازجة تتفجَّر برحيق الحياة.. الغمازتان تضيئان الوجه البدريّ الأبيض المؤطَّر بسواد الليل كشَعرٍ فاحم منسدل على كتفين ريانيين.. ترفع عينيها إليه من جديد يلمح فيهما لمعان دمعات حزينة.. لا تريد أن تغادر الأهداب السود.. تهمس بشفاه متلعثمة.. كأنَّها نسيَت التعبير بالأحرف والكلمات، بعد الذي كان!!

- سامي.. متى تعود؟

سامي.. هل تطول غيبتك؟

سامي.. هل تنسيك بلاد الغربة حبيبتك

وروحك؟

– من ذا الذي يمكنه أن يحبَّك ثم ينساكِ يا دعاء؟!

سؤال لم ينطق به لسانه.. بدت الكلمات.. كلّ الكلمات.. والأسئلة.. وكذا الأجوبة عبثيّة في ذاك الوقت..

أجابتها أطراف أصابعه.. ما زالت تعبث بخصلات شعرها.. تُصرُّ على أن تبحث عن مفرق رأسها.. بدا الخطّ الأبيض الدقيق أخيرًا بين سواد الشعر.. هبط بشفتيه يطبع قبلة تحمل حنان العالم على هذا الخط الرقيق.. وكفُّه ترفع وجهها من جديد.. ينظر في عينيها المتألّقتين مباشرة..

– دعاء.. متى تضحك هاتان العينان من جديد؟

– عندما تبشِّرني حبيبي بالعودة..

– أو عندما أدعوكِ لتسافري إليّ؟

– وليكن سامي.. وليكن.. فوطني هو ذلك المكان الذي نكون فيه معًا.

آآآه يا دعاء.. ما أقساكِ، وما أعنفها من كلمة ينطق بها لسانكِ.. ما أشدّ وقع كلمة وطن عندما تشقّ آذان الناس في الغربة.. أو تطرق آذان المقبلين على الاغتراب..

– وطن؟!

وما أدراك ما وطن؟
حفنة رمال على الطريق؟
طريقة حياة؟
ذكريات عشناها من زمن؟
أم هو الحياة؟
ماذا تعني كلمة وطن؟
أُمي وأبي والأصدقاء؟
ذاك التراب؟
تلك الفتاة؟
هذه الوجوه شاحبات من المحن؟
الأهل والصدر الحنون؟
مواساة في جوف ليل حزين؟
بسمة رجاء
كلمة أمل
لا أدري على وجه اليقين..
ماذا تعني كلمة وطن؟
الماء للأسماك؟
الخَصب للزرع؟
كل الكائنات مرهفات الحسّ.. لو خرجت من

الوطن تموت..
إلا أنا.. أفرّ من وطني لأحيا حرًّا طليقًا..
يااااه يا دعاء.. ما أقساكِ.. وما أقسى كلمة وطن في ساعات الرحيل!
نرحل ليبقَ حيًّا نابضًا فينا الوطن
نرحل به لأنَّه يسكننا، وليس لنا فيه مكان للسكن
ضاق بنا.. ولم تضق به صدور العاشقين
الحالمين
يحيوْن على ذكرى وطن
يحيوْن على حلم جميل
حلم المُشرَّد أن يعود
إلى الحياة إلى السكن!

٢ - عالم جديد

لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك لبيك
إنَّ الحمد والنعمة لك والملك
لا شريك لك

بمجرد اقتراب الحافلة من مدينة رابغ السعودية على البحر الأحمر.. تبدَّل كل شيء في عيني سامي.. كأنَّ الناس لم يعودوا هم الناس.. ولا العالم ظلَّ كما هو العالم الذي يعرفه من قبل..
كل شيء حوله اكتسى باللون الأبيض.. الرجال يرتدون رداءً وإزارًا.. والنساء ارتدين الجلاليب والطرح البيضاء.. وعلا الحداء.. لبيك اللهم لبيك..
وخفت كل صوت عداه..
كلّ ما لاحظه سامي أنَّه في الدقائق التي غادر فيها الحافلة مكيَّفة الهواء إلى الاستراحة التي غيّر فيها ملابسه إلى ملابس الإحرام.. لفحة هواء ساخن مجفَّف.. كأنَّه هواء خرج من فرنٍ بلدي للخبز

الفلاحيّ ساخنًا مجفَّفًا..
ثمّ خبا بريق كلّ شيء عندما عاد للحافلة متجرِّدًا من كلّ شيء كان عليه إلا هذا الإزار والرداء.. وحزام وسط به أوراقه الشخصيّة وقليل من النقود ليس إلا..
اختفت جميع الصور والمعالم من عينيه.. وشعر بدقَّات قلبه عنيفة كأنَّها تسحب هذا القلب إلى أسفل صدره.. فقط دعاء لم تختفِ صورتها، ولم تفارق خياله.. كلّ الذي تبدَّل بشأنها أنَّه لم يعد يرى نفسه يقبِّلها تلك القُبلة الطويلة الحالمة.. وإنَّما صار يصلِّي بجوارها ويدعو لها.. لم يكن يدعو لها بقدر ما كان يدعو لنفسه أن يعجِّل الله جمعهما معًا.. فكل الذي مضى من رحلة حياته هذه التي لا يدري كم تطول يومان لا أكثر.. لكنه خلالهما أدرك الحقيقة البشريّة.. لا يدرك الإنسان قيمة الكنز الذي بين يديه إلا عندما يفقده.. أو يوشك أن يفقده.. وهو يدرك قيمة دعاء في حياته دائمًا.. لكنَّه لو علم مسبقًا بمقدار الألم الذي يمزِّق روحه بسبب الفراق، ما أقبل على هذه الخطوة ولو كانت حاسمة في مصير حياته..
قُضي الأمر ولم يبقَ له سوى الدعاء، والتوحّد مع هذا

العالم.. تلك الجموع الهادرة التي تتحرَّك كموجة بشريّة واحدة في طوافها الدائب حول الكعبة المشرَّفة..
هنا تُسكب العبرات.. وتُرفع الدعوات.. ويغتسل الإنسان بدموعه أكثر ممَّا يغتسل بوسائل النظافة المختلفة.. ويتطهَّر.. ثم يسمو.. ثم وهو في قمة طهره وسموه.. لا يطلب من مولاه إلا ما يعيده ثانية إلى الأرض.. وكأنَّنا لا نتجرَّد من كل متاع الدُنيا في رحلتنا الخالدة إلى الله، إلا لنطلب منه مزيداً من متاع الدُنيا نفسه..
كثيرٌ من طلب المغفرة والرحمات.. وكثيرٌ من طلب الدرجات العلا من الجنَّة.. كلّها تغلِّف طلباتنا الأساسيّة بتفريج الهموم وسعة الرزق والصحّة والعافية وصلاح الأولاد والأزواج ومتاع الدُنيا..

- لا عليك يا سامي.. فكلنا يطلب من جوادٍ كريم عنده خزائن الدُنيا والآخرة.. فليعطنا من خزائن الدُنيا بعطائه غير المحدود.. ثم لا ينقص من عطائه لنا في الآخرة شيئًا.. وما الضير في ذلك أليس خير دعاء "**ربنا آتِنا في الدُنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النار**"؟

تذكَّر سامي هذا الدعاء القرآنيّ الجامع العظيم وهو

يطوف بالكعبة المشرَّفة في شوطه الرابع.. فنزلت الآية على قلبه برداً وسلاماً.. لم يعد يستحي أن يطلب من ربه الجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة.. ووجد نفسه خفيفاً كأنَّه يطير بجناحين فوق الجموع الذاكرة.. وإذا به يترك الموجة البشرية التي تدفعه في مسارٍ واحد يبعده عدة صفوف عن الكعبة المشرَّفة.. ويمرق ما بين الصفوف في رفق وحرص، فهو لا يريد أن يؤذي أحداً من الطائفين.. ومع ظاهرة الشحن والتفريغ التي تحدث مع الموجات البشريّة في طوافها الحثيث.. وجد سامي نفسه أمام أستار الكعبة.. وتعلَّق.. لم يتعلَّق بجسده ولا بذراعيه.. وإنِّما تعلَّق كيانه كلّه بالكعبة.. وتعلَّق برب الكعبة.. وأسند رأسه على جدارها عند الركن الشاميّ.. وتوقَّف الزمن.. توقَّف الوجود كلّه خاشعاً من خشوعه.. وانسكبت الدموع حارّة غزيرة بلا إرادةٍ منه ولا وعي ولا حتى حرص على انسكابها.. إنَّما هزَّته رعشة خفيّة.. ووجد نفسه هائماً فوق الوجود يناجي رب الوجود..

- يا رب.. يا رب.. يا حي يا قيوم.. يا بديع السماوات والأرض، يا أرحم من مَلك، وأوسع من أعطى، وأكرم من سُئل.. يا من سِرُّنا عندك علانية ولا

تخفى عليك منَّا خافية.. يا ملك الملوك.. ومدبِّر كل أمر.. وميسِّر كل عسير.. ما أنا في جنابك إلا نقطة بين حرفي الكاف والنون.. تقول سبحانك كُن.. فأكون.. اجعلني ما حييت عبدك وارزقني في الدُنيا حسنة.. وفي الآخرة حسنة.. وقني عذاب النار.. وأنت أعلم منِّي بمسألتي.. فاجمعني يا لطيف يا ودود بمن أُحبّ.. واجعل جمعنا في الدُنيا في رضاك وطاعتك وبارِك لنا فيه.. ثم اجمعنا في الآخرة في مستقرّ رحمتك تحت ظلّ عرشك الكريم..

بكى سامي وانتحب.. وعلت منه الشهقات، فلم ينتبه إلى تنبيهات الشيخ المطوِّع ذي العباءة البُنيّة الرقيقة الفضفاضة الذي أتى ينبِّهه مرَّات إلى وجوب استكمال الطواف.. وأنَّ التعلُّق هكذا بأستار الكعبة لم يرد في سُنَّة النبي صلّى الله عليه وسلّم.. لم يسمع سامي تنبيهات الشيخ وهو هائم في وَجدِه.. أشفق المطوِّع من بكائه فتركه رفقًا به.. حتى إذا طال تعلُّقه بالكعبة.. هزَّه الرجل من كتفه في رفق، وهو يهمس به:

- استكمل طوافك يا رجَّال.. طُف.. طُف ولا تتوقف

ثانيةً..

نظر سامي بعينين ذاهلتين دامعتين.. فلمح طيف المطوِّع من بين بلورات الدموع المتكوِّرة.. فهزَّ رأسه مغمغمًا.. ومضى مع الجموع يكمل طوافه وهو يشعر بأنَّ يدًا عُليا غسلته حقيقةً من خطاياه بالماء والثلج والبَرَد.. إنَّه الآن ناصع من الداخل.. وليس مظهره فقط هو الذي ارتدى البياض.. أعماقه أيضًا الآن بيضاء من غير سوء..

تعجَّب من جديد وهو يسمع دويّ الدعوات المنطلقات من مئات الآلاف كأنَّه يسمع طنين النحل في خلاياه!! اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد..

دعاء جميل.. فهل يعود المغسولون بالماء والثلج والبرَد من جديد إلى نفس الخطايا والذنوب؟ يا رباه أنعم علينا بتوبةٍ لا نعود بعدها أبدًا لأيّ ذنب!!

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

رغم حرارة الجوّ الشديدة التي لا تناسب هذا الوقت من العام في ظنّ سامي.. فإنَّ المنطقة التي أنزله فيها سائق السيَّارة الأُجرة بدت منطقةً راقية وهادئة تمامًا.. أخذ سامي ينظر حوله.. وعلى الجانب الآخر من

الشارع لفتت نظره لوحة شركة المكيّفات العالميّة التي تحتَلُّ الطابق الأرضيّ من البناية الكبيرة التي يقع فيها مقر شركته التي قدم من أجل العمل بها.. العارفون ببواطن الأمور في مدينته لا سيّما الذين سبق لهم السفر والإقامة والعمل في السعودية، قالوا له إنَّه محظوظ ولا شكّ.. إذ يلحق بشركة كبيرة لها فروع في مدنٍ عدَّة في المملكة.. هذه الشركة ذاتها فرع في مجموعة اقتصاديّة كُبرى تُعدّ واحدة من المجموعات التجارية المعدودة والقائمة على تنوُّع في نشاطها الاقتصاديّ ما بين أنشطة الاستيراد، والثلاجات التي تعمل على استيراد كافّة أنواع الأغذية المحفوظة والفواكه والخضر من شتى أنحاء العالم.. وتخزين الصالح منها للتخزين، ومن ثم طرحها في الأسواق من جديد..

بدت البناية نفسها التي يقع فيها مقرّ فرع مكَّة لشركة المقاولات التي حسدوه على الالتحاق بها قبل أن يراها بعينيه.. بناية كبيرة فخمة، وإن لم تكن كلّها مقرًّا للشركة.. بل كانت فيما عدا طوابقها الأولى.. عمارة سكنيّة كبيرة..

يتلفَّت سامي حوله يرصد بعينيه أكبر عدد ممكن من

معالم المنطقة كأنَّه يخشى إن عاود النزول إلى الشارع أن تتوه منه المعالم فلا يمكنه العودة إلى مقصده منها.. إشارة المرور رابضة بوضوح في منتصف الطريق وعلى يمينها وهو ينظر إلى السهم الذي يشير إلى طريق جدّة القديم، لوحة لأحد فروع البنك الأهلي، وبجواره وقْف مدارس الفلاح الذي يحتلّ الناصية المؤدّية إلى شارع ساحة إسلام.. وفي الجهة المقابلة التي يقع فيها مقرّ شركته الجديدة بدت الشوارع خلفها أكثر شعبيّة وعشوائيّة من الجهة المقابلة..

بسمل سامي وتوكَّل على الله ومضى عابرًا الشارع إلى مقر شركته.. وصعد إلى الطابق الأول مستقلا المصعد على غير عادته في استخدام المصعد في الطوابق الأولى.. لكنَّه وجد مدخل البناية غريبًا مظلمًا إلى حدٍّ ما.. فخشى أن يضيع في التفاصيل.. خرج من المصعد ليجد نفسه أمام مقرّ الشركة.. شقّة سكنيّة بدت عاديّة وإن تعدَّدت غرفها واتسعت.. استقبله بالباب عامل طويل نحيف أسمر اللون ناعم الشعر يتهدَّل على جبهته يرتدي قميصًا واسعًا فوق سروالٍ جيدّ الصنع.. نظر إليه العامل متطلِّعًا في ارتياب يقيسه بنظرات بدت حادّة..

سأل سامي في ثبات حاول أن يجده في نفسه عن اسم المهندس متولي مدير الفرع، فاقتاده العامل الذي علم فيما بعد أنَّه هنديّ الجنسيّة، وأنَّ اسمه عبد المعين، إلى غرفة فسيحة كل ما فيها من أثاث بدا على الطراز الإنجليزي الكلاسيكيّ.. فخمًا ضخمًا.. المكتبة وخزينة المشروعات، ولوحة عرض شغلت نصف جدار الغرفة على يمين المكتب الضخم الذي بالكاد يتوازن مع ضخامة جسد المهندس متولي الجالس إليه!!

المهندس متولي رجل في الأربعين من عمره مُهابًا ضخم الجسم، طويل القامة عريض الكتفين، بدين الجسد، أصلع الرأس، ذو وجه أبيض البشرة، أكثر نعومة من أن يكون وجهًا لهذا الجسد الذي تسيطر عليه الخشونة في كل جزءٍ من أجزائه.. ابتسامته لسامي أيضًا بدت رخوة.. أثارت اشمئزازه الذي يحاول جاهدًا أن يداريه!

أمام المهندس متولي وعلى المقعد الوثير الآخر في مقابلة سامي يجلس رجلٌ أشيب ملامحه تؤكِّد تخطّيه الخمسين من عمره.. مربوع القوام غير أنَّه كبير الكرش..

عرَّفه المهندس متولي إلى سامي قائلا وابتسامته اللزجة

تسبقه:

- أبو عصام الأستاذ عادل فخر الدين، مراقب عام الفرع.. وهو ذراعي اليمين في الشركة..

ثم توجّه إلى أبي عصام مكملا واجب التعريف:

- السيد سامي الموظّف الجديد بالشركة..

رغم كل مظاهر الأبّهة التي يحيط المهندس متولي بها نفسه.. استشفّ سامي بعد دقائق من الحديث ريفيّته البسيطة.. كذلك كان أبو عصام ريفيًّا فاقعًا.. ولم تمضِ سوى نفس هذه الدقائق التي احتاجها سامي ليستوعب تلك الحقيقة حتى اختفت كل لزوجة ابتسامة المهندس متولي وليونة وجهه التي لا تتناسب مع خشونة كل جسده.. وكرش أبي عصام الممتدّ أمامه.. وأخذ يتجاذب معهما أطراف الحديث في عفويّةٍ محبَّبة وكأنَّه في زيارة قصيرة قريبة لأقربائه في البلد..

بعد أن احتسوا أكواب الشاي التي قدَّمها عبد المعين.. نظر متولي إلى أبي عصام في صرامة مفاجئة لا تتناسب أبدًا مع جو الحديث الودّيّ المتبسِّط الذي كان يدور قبل ثوانٍ معدودة.. وقال في حزم لافت:

- العمَّال في موقع العوالي لم ينجزوا المطلوب منهم

منذ يومين.. من الواضح أنَّك تتسامح معهم إلى درجة التسيّب يا أبا عصام.. أريد أن آتي الموقع في نهاية الدوام اليوم فأجد كلّ شيء على ما يرام..

ثم رفع صوته أكثر.. فتلجلج الصوت بشدّة وبدا أنَّ حروف الكلمات تخرج من فمه مُبعثرة غير مترابطة:

- اذهب الآن فورًا.. لا أريد أيّ تأخير..

صوت متولي العالي وحِدَّته جعلت عبد المعين يأتي مسرعًا ثم يقف في منتصف الصالة المطلّة على حجرة المدير ينظر في ترقّب.. كأنَّه يتوقع حدوث شيء أكبر من رفع الصوت الجهوريّ المتلعثم.. ومضى أبو عصام متمتمًا لنفسه بلزمته الدائمة التي اكتشفها سامي مع الأيام:

- وهل هذه حركة؟!

وسرعان ما كست الابتسامة اللزجة وجه متولي من جديد وبدأ يناقش في تودٍّ شديد مع سامي مؤهّلاته وخبراته السابقة.. أخرج سامي من حقيبة يده شهادة البكالوريوس وشهادة دورة الكمبيوتر المتقدِّمة في زهوٍ واعتداد..

غير أنَّ متولي نظر إليها بغير اكتراث ولم يكلِّف نفسه

مراجعة المعلومات المدوّنة بها، وفاجأ سامي بسؤال بدا له أغرب ما سمعه في حياته حتّى هذه اللحظة على الأقل:

- دع الشهادات جانبًا يا سيّد سامي.. فكلّنا يعلم كيف يأتي الناس بهذه الشهادات.. أغلبها يكون مضروبًا.. أنا لا تهمّني الشهادة التي حصلت عليها، ولا الجامعة التي تخرّجت فيها.. كل ما يهمّني هنا هو إجادة العمل.. ويهمّني أكثر وأكثر.. الحرص.. تفهمني يا سيّد سامي؟ الحرص..

الحرص معناه قلّة الكلام.. لا تثق في أحد.. ولا تعطي أسرارك لأحد.. ولا أسرار العمل.. ولا أسرار الفرع.. كلّ ما يدور هنا هو من الأسرار المحرَّمة.. فمن يرد أن يأكل عيشًا في هذه الشركة المبجَّلة فعليه أن يطبِّق شعار: لا يسمع لا يرى لا يتكلّم.. الإدارة في جدَّة لها عيون على العيون.. وآذان تسمع دبيب النمل.. وأنا أحبّ من يعمل معي أن يكون أمينًا مُخلصًا..

دارت عينا سامي ودار عقله.. شهادات مضروبة؟! أمانة وإخلاص؟! شعار لا أسمع لا أرى لا أتكلّم؟! السرّيّة

والحرص وقلَّة الكلام؟! شركة هذه أم ثكنة عسكريَّة؟! والمتولي الماثل أمامه بطوله وعرضه وصلعته وكرشه مهندس مدنيّ أمْ جاويش في الجيش؟!

وبدا لسامي ملمح جديد من ثقافة المتولي الأوّليّة.. هذا الرجل رغم تبجُّحه هَشّ.. هَشّ لدرجة أنه يفقد السيطرة على أعصابه وعلى حروفه وكلماته مع انفعاله لأدنى سبب.. وعندما يتمادى في الحديث طويلا وعلى سجيّته، يبدِّل الحروف في الكلمات مكان بعضها البعض فيجعل الكاف قافًا.. والسين صادًا، والغين خاءً.. والتاء طاءً.. والعكس بالعكس.. يشعر سامي في قرارة نفسه في هذه اللحظة أنَّه يجلس أمام رجل من طبلٍ أجوف..

لكنَّ هذا الرجل نفسه وخلال لحظات قلائل استعاد رباطة جأشه في تناقض وسرعة يُغبط عليهما.. وبدأ يُعرِّف سامي على مهامّ وظيفته الجديدة.. أو في الواقع وظائفه الجديدة في فرع الشركة، فسامي سيصبح من الآن فصاعدًا مُحاسب الفرع، وأمين خزانته، والسكرتير، والكاتب العام للفرع، والكاتب الخصوصيّ لخطابات المتولي العمليّة عادةً والخاصّة أحيانًا.. ولا مانع من أن

يدور في أوقات فراغه على مواقع المشروعات ليتفقَّد أداء العمَّال والمراقبين.. وسيسكن هنا في مقرّ الشركة نفسها، حيث توجد غرفة صغيرة بجوار غرفة مكتب المدير بها سرير وخزانة ملابس وملحق بها حمام داخليّ صغير، وهذا كل ما يلزم موظف عزوبيّ مثله.. أمَّا عبد المعين الهنديّ فسيصبح جاره في السكن حيث يقيم وينام على (طُرَّاحة) أي مرتبة من الإسفنج على أرضيّة المطبخ!!

لم ينسَ المتولي أن ينبِّه على سامي في ترك جواز سفره لدى أبي عصام ليأخذه معه إلى إدارة الشركة في جدَّة، ليستخرجوا له الإقامة النظامية..

هكذا تمَّت مراسم استلام العمل والسكن.. مراسم الحياة الجديدة لسامي في عالمه الجديد، دون اختبارات شخصيّة ولا معلوماتيّة ولا خبراتيّة.. كلّ ما هو مطلوب منه ببساطة أن يعمل كلّ شيء دون أن يفهم أو يناقش أو يراجع أيّ شيء..

إنَّ إدارة المتولي كما أفهمه عبد المعين الهنديّ.. وكما ألمح له فيما بعد أبو عصام الذراع اليمنى لتلك الإدارة.. قائمة على سياسة (حاضر يا فندم - أمرك يا فندم).. أو

كما لخَّصها المتولي نفسه (لا أسمع، لا أرى، لا أتكلَّم)!
وتساءل سامي في أول ليلة انفرد فيها بنفسه في سكنه الجديد محدود المساحة وقد جافاه النوم وأرَّقه السهاد:

- ما هذا الذي يجب ألا يسمعه وألا يراه وألا يتكلّم عنه؟

وتوالت الأسئلة في الليالي التالية.. فلم يكن حظُّه من النوم فيها أوْفر من سابقاتها.. فالأسئلة ما زالت تلحّ عليه..

عيون! جواسيس! وحزم! وإدارة صارمة! ومتولي ضخم الجثّة مفكَّك الأعصاب! وذراع يمنى، وأخرى يسرى! وعمالة متعدِّدة الجنسيات تُقاد بالعصا والجزرة! العصا عادة والجزرة أحيانًا!!

أين يمكن أن يكون موقعك يا سامي من كلّ هذا؟

أحلامك؟ آمالك؟ طموحاتك؟ حريّتك التي جئت تبحث عنها؟! يبدو أنَّك سلَّمتها إلى حين مع جواز سفرك الذي تَسَلَّمَهُ منك الذراع اليمنى للمتولي.. جواز سفرك الذي لن يُقدَّر لك بعد الآن أن تراه إلا عندما تقرِر إدارة الشركة الموقَّرة أن تمنحك عطلة تقضيها في بلدك.. أو تُقرِّر أن تستغني عن خدماتك فتمنحك

تأشيرة خروج نهائيّ..
المغتربون هنا وما أكثرهم من كل الجنسيّات يعيشون بين أمل تأشيرة الخروج والعودة (الجزرة).. وكابوس تأشيرة الخروج النهائيّ (العصا الغليظة التي تلقف كلّ عِصيّ المتولي وأمثاله)..
الهواجس التي أرَّقت ليل سامي تحوَّلت مع الوقت إلى كوابيس.. والصورة الكلِّية لم تتّضح بعد..
في مقرّ فرع شركة طُلب منه فيها بوضوح ألا يسمع وألا يتكلّم.. لا أحد يمارس شيئًا أكثر من الهمس الخافت في أُذن سامي.. إنَّه يدير مكتبًا لسماع كلّ أنواع الشائعات والأخبار والهمس.. الكل يتكلَّم.. والكلّ يهمس، والكلّ ينقل الأخبار صحيحها وكاذبها.. وكلّها تصبّ عند سامي في الصالة المطلَّة على حجرة مكتب المتولي، والتي اختار له موقع مكتبه فيها ليكون أمام ناظريه في الأوقات التي يداوم فيها في المكتب.. وما أقلّها وأثقلها.. وأمَّا الأوقات التي يتابع فيها المشروعات فهي أوقات لممارسة العمل الرسميّ للجميع.. الهمس.. ثمّ الهمس.. ثمّ الهمس!!
– أين أنتِ يا دعاء من كل هذا؟ أين أنتِ يا ذات

الوجه القمريّ في الليل البهيم من عالمي الذي أحياه الآن؟ هل تواريتِ حقًّا خلف غيوم انشغال العقل وانشغال البال واشتعال الأعصاب؟!

مثلكِ لا يمكن أن يغيب.. مهما كانت الأهوال.. فقط أضنّ بأن أدخل بوجهكِ النورانيّ البريء هذه المتاهة.. ولو كان دخولكِ مجرَّد طيف في خيالي.. لأنَّكِ تسكنينني.. سأتركِ بطهركِ خارج هذا العالم الغائم مهما اشتقتُ إلى عينيكِ الكحيلتين وغمازتي وجهك الفاتنتين، وشعركِ الفاحم وشفتيكِ المكتنزتين المرتعشتين، وحسنكِ الساحر..

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

سيُدرك سامي بسهولة في الأيّام التالية أنَّ العامل الهنديّ عبد المعين لم يحبّه ولم يسترحْ لوجوده كموظَّف جديد في الفرع.. وإن ظلّ يؤدّي عمله في حدود الأدب الجمّ والاحترام المبالغ فيه.. عبد المعين له حساباته المعقَّدة.. مصريّ آخر يضاف إلى رصيد المصريّين المتغلغلين في الشركة، رغم أنَّ الشركة في

الأصل شراكة سعوديّة لبنانيّة.. ورغم تعدُّد الجنسيّات تظل للمصريّين الغلبة في احتلال الحصَّة الأكبر في دولاب العمل!

الهنود والبنغالة - أبناء بنجلاديش- مهمَّشين رغم أنَّهم يعملون بدأب في النظافة والبوفيه، ومنهم من يعمل بتفوق في مجال الكمبيوتر.. محمد فاروق الشاب الهنديّ مثال يفخر به كل الهنود والبنغالة في الشركة فهو رسَّام مبتكِر، يستخدم برنامج الرسم الهندسيّ أوتوكاد وبرامج رسومات وتصميم واجهات أخرى كثيرة.. يُنجز من خلالها أعمالا تنال رضا المهندس سعد بهلول الشريك اللبنانيّ في الشركة.. ويُبهر بها المهندس متولي نفسه عندما تنتدبه الإدارة لزيارة فرع مكَّة وإنجاز بعض التصميمات المطلوبة هناك..

المتولي ولا شكّ يعرف الكثير ويقوم بعمل عدّة مهندسين معًا.. لكنَّه ضعيف في التعامل مع الكمبيوتر.. الرسَّام الهنديّ محمد فاروق هو وحده القادر على وضع الهنود في مصافّهم الصحيح أمام المتولي..

الآن وقد التحق بالعمل مصريٌّ جديد يجيد التعامل مع الكمبيوتر إجادة تامّة.. يكسب فريق المصريّين ألقا

جديداً ويتوارى انبهار المتولي بالرسام محمد فاروق..
عبد المعين سيلاحظ في الزيارة التالية للرسَّام محمد فاروق لفرع الشركة بمكَّة تناغمًا واضحًا وتفاهمًا كبيرًا بينه وبين المصريّ الجديد سامي..
ميزة أن يكون محمد فاروق من نفس منطقته في الهند، وأن يستطيع أن يتفاهم معه بالأردو.. ويتجاذب معه أطراف الحديث في تفاصيل لا يستطيع مجرَّد التفكير فيها أمام المتولي وسامي وأبي عصام.. في وجود فاروق يفعل.. يقول ما بدا له أنَّه في حاجة إلى قوله.. يقوله لمحمد فاروق في حضور الجميع وعلى رؤوس الأشهاد.. دون أن يفهم أحد الجالسين كلمة واحدة ممّا يقولان.. ولا يعرف أحد من خلال ملامح وجهه الأسمر وتقاطيعه الحادّة بطبيعتها هل هو في معرض الإشادة أو الذمّ.. لا يعرفون من الأساس هل الحديث الدائر حولهم يتناول شأنًا من شؤون الشركة، أم أنَّهما يتحدَّثان حديثًا خاصًّا له طبيعة عائليّة تتناول الأوضاع المعيشيّة في الهند؟
عبد المعين يجد لذَّة خفيّة في ممارسة لعبته السرِّيّة في العلن أمام الجميع.. يستطيع أن يلعن المتولي وأن يصفه بأقذع الأوصاف وفي حضور المتولي وعلى عينه وسمعه

وهو منتبهٌ لم يفهم شيئًا!!
عبد المعين يمارس ردّ فعله التلقائيّ في السخرية من مجتمع لا يعترف بوجوده إلا عند الحاجة إلى كوب من الماء المثلَّج، أو للتباهي بوجود عامل هنديّ يجيد تقديم الشاي والقهوة بشكل متميّز أمام العملاء أو الضيوف.. في غير تلك الأوقات يشعر بالمهانة والاحتقار.. في وجود فاروق يمارس لعبته السرِّيّة فيسب المتولي تحت أنف المتولي.. ويسأل الرسام عن رأيه في المصريّ الجديد.. وهل هو من حزب المتولي وأبي عصام، أم لم يتمّ تجنيده بعد؟ ويسأله في قلق وتحذير خفيّ عن سر تناغمه مع هذا المصريّ الوافد؟
ابتسامة محمد فاروق وهزَّة رأسه يمنة ويسرة.. ثمّ حديثه الجيّد عن سامي لم تُدخل في نفسه الطمأنينة تجاه شريك العمل في المكتب نهارًا.. وشريك السكن في ذات المكتب ليلا..

المتولي وأبو عصام ليسا بغائبيْن تمامًا عن المشهد الدائر.. غمزة من العين اليسرى لأبي عصام جعلت المتولي يرفع صوته صائحًا بالرسَّام..

- ماذا يقول لك هذا الولد الملعون؟

وقبل أن يجيب فاروق اندفع أبو عصام قائلا بصوت حرص هذه المرّة أن يرفعه فوق صوت المتولي نفسه، فلا غضاضة في ذلك طالما أنَّه يدافع عن حق المتولي وكبريائه:

- أقطع ذراعي من هنا (مشيرًا إلى أسفل إبطه) إن لم يكن هذا الولد الـ..... يشتم المصريّين (داحين)..

يضحك المتولي بصوت جهوريّ مُقزِّز وهو يقول:

- أنت تعلم أنّني أُحبّك يا فاروق.. إيَّاك أن تسمع لهذا اللعين.. وإلا طلبت منهم في جدَّة ألا يرسلوك لمكَّة مرة أخرى.. وأنت تعلم ماذا تستفيد من هذه الزيارة..

يهتف أبو عصام مصطنعًا المفاجأة:

- هل تتقاضى بدل سفر على حضورك هنا يا ابن الإيه؟ ألا يكفيك دخول مكَّة وزيارة الحرم؟ وأحيانًا تأتي بملابس الإحرام وتستغِّل الفرصة في أداء العُمرة؟

يتكلّم سامي أخيرًا بصوت رصين:

- دعه يا أبا عصام.. فكما يقولون أجرٌ وأُجرة.. دعه يحصل على المكافأة ويستفيد أجر العُمرة كذلك..

يقف أبو عصام ليمتدّ كرشه الذي كان مكوّرًا أسفل المكتب الضخم للمتولي وهو يقول وما زال صوته هادرًا:

- ليكن يا سيّد سامي.. فإن لم تدافع عن فاروق فمن يدافع عنه؟! كلاكما تعملان على الكمبيوتر اللعين..

يهمّ فاروق بالاعتراض.. يستوقفه أبو عصام بحركة من كفِّه التي رفعها عاليًا:

- ابني عصام أيضًا مهندس كمبيوتر وأنا منحاز لكما لأنّني أحبّ عصام..

ينظر إلى ساعة معصمه.. ثم يهتف بقولته الشهيرة:

- وهل هذه حركة؟ أَخَذَنَا الحديث وتأخّرتُ عن موعد المنجرة..

ويهمّ في الحركة السريعة إلى باب المكتب الخارجيّ قبل أن يسمع لعنات المتولي تلاحقه بسبب تأخيره.. حركته السريعة لم تُعفِه من رذاذ حروف المتولي المتطايرة.. وفاروق وعبد المعين يخفيان ابتسامتهما.. وسامي يخفي

دهشته واشمئزازه..

❖❖❖❖❖❖❖

وما زالت الأسئلة تلحُّ على ذهن عبد المعين.. ينحاز للهنود باعتبار المواطنة.. ويتعاطف مع البنغالة الطرف الأضعف على الإطلاق.. الباكستانيون لا يميلون كثيرًا للعمل الوظيفيّ ولا يمتهنون العمل الإداريّ مطلقًا.. كلّ الباكستانيين الذين صادفهم في مكّة وجدَّة إمَّا مقاولين (معلِّمين) أو عمَّال أحرار يعملون باليوميّة.. لا أحد منهم يعمل ضمن نظام أو مؤسّسة أو شركة.. كلهم أصحاب عمل.. لا أحد تحت حد الساركي إلا البنغالة والهنود و(الدكارنة)، ثمّ المصريّين وبعض العرب من جنسيّات أخرى..

عندما سيقدَّم عبد المعين كوب الشاي في الصباح التالي لسامي في بداية وقت الدوام سيسأله حتمًا:

- هل ستصبح بسبب خبرتك في العمل على الكمبيوتر بديلا لمحمد فاروق؟ وهل ستنقطع زيارات فاروق للفرع؟

سيبتسم سامي طويلا قبل أن يقول في تسامحٍ مُحبَّب:

- الكمبيوتر يا معين تخصُّصات كثيرة.. وما يجيده

فاروق من برامج تصميمات أنا لا أعرف التعامل معها.. لا بدّ لنجاح الشركة من وجود سامي وفاروق ومعين..

يردف عبد المعين كأنَّه يخشى أن يُسجِّل عليهما أحدٌ حديثهما المنفرد:

- والمهندس متولي وأبو عصام..

تتسع ابتسامة سامي:

- طبعًا كلّنا هنا واحد يا معين.. والشركة تنجح بنا جميعًا..

عبد المعين يريد أن يطمئنّ إلى سامي.. يريد أن يحبّه وأن يأتنس به.. يدرك أنَّ سامي شاب جيّد.. جرى بينهما اتّفاق ضمنيّ.. فلأوّل وهلة لعلم عبد المعين أن سامي سيكون ساكنًا جديدًا بمقر فرع الشركة انتابته الهواجس.. هل سيكلِّفه هذا عبئًا إضافيًّا من العمل على خدمته خارج أوقات الدوام؟ بعد أوّل ليلة قضاها سامي في مقرّ الشركة، استيقظ وقت صلاة الفجر.. وبعد أن اغتسل وأدَّى صلاته.. جلس يقرأ في كتابٍ معه.. ثم انتظر حتى بدا له أنَّ عبد المعين قد استيقظ وغادر المطبخ، فقابله في الطرقة المؤدّيّة الى الحمَّام العامّ

للمكتب واستأذنه في أن يسمح له بدخول المطبخ واستخدام الأدوات لصنع الشاي لنفسه ثم أضاف:

- يا معين في غير أوقات الدوام أحب أن أخدم نفسي بنفسي.. هذه عادة اعتدت عليها منذ صغري فسامحني، إن تجاوزت ومارست بعض أعمال المطبخ..

في نفس هذا الصباح دُهش عبد المعين عندما رأى الأكواب مغسولة ونظيفة ومرتّبة في مكانها وكذلك صينيّة التقديم، بعدما استخدمها سامي!!

مضى الاتفاق الضمنيّ صريحاً غير منطوقٍ أو مكتوب.. يمارسه سامي بتهذيب.. لكنَّه يظلّ مصريًّاً يضاف إلى رصيد هيمنة مصريّة على النصيب الأوفر من دولاب العمل بالشركة..

لاحقاً ودون إبداء أسباب سيطلب عبد المعين النقل من فرع الشركة بمكّة.. وسيوافق المتولي على الطلب بصفته مديراً للفرع مشترطاً توفير البديل الكفء وموافقته شخصيًّا عليه أوّلا قبل رحيل عبد المعين..

(٣) انفتاح الكادر

محيي الدين الهنديّ الذي أقبل للعمل في فرع مكَّة خلفاً لعبد المعين، نموذجٌ هنديّ مختلف.. أسمر البشرة، طويل القامة، معتدل القوام، عريض عظام الكتف، حادّ النظرات في غير تركيز، فعيناه عادةً زائغتان، شاربه الهائش غير قابل للتهذيب، يبدو كفرشاة غير جيّدة الصنع.. توحي ملامحه ببلاهة طبيعيّة وُلدَت معه، سمعه ثقيل بعض الشيء على ما يبدو.. أو أنَّ بُطء استيعابه هو ما يُلجِؤه إلى هذه الحيلة.. يقترب منك بصورة مثيرة ومستفزِّة كلّما تطلب منه شيئًا أو تحاول أن تتحدَّث إليه.. تنطلق من بين شفتيه علامة سؤال كأنَّها دانة مدفع:

- هه؟

يلقيها ولا ينطقها، فلا تدري على وجه اليقين هل تخرج الآهة المتسائلة من بين شفتيه أم تخرج من صدره؟!

لم يكن في أناقة معين ولا اهتمامه بمظهره.. يبدِّل بين قميصين متهدِّلين واسعين أحدهما ورديّ فاتح والآخر

بصليّ غامق، على بنطلون أسود حائل اللون لا يغيِّره تقريبًا.. وعندما ينتهي الوقت الرسميّ للدوام يخلع عن نفسه القميص والسروال ويجلس في مقرّ الشركة بفانلّة داخليّة تشهد تمزّقًا في بعض نواحيها، والفوطة.. وهي أشبه بالإزار، ملوَّنة بألوانٍ يحبّها أهل الهند وأهل اليمن..

منذ أوّل وهلة لوصول محيي الدين مقر الشركة في مكَّة ارتاح لاستقبال سامي وقرَّر أن يتّخذ منه صديقًا.. شقيقه الواعي عبد القادر وهو الشقيق الأكبر، والعامل الأقدم منه في مقرّ الشركة بجدَّة، أوصى به.. ثم أوصاه أن يقيم علاقة جيّدة مع المصريّ سامي، فهو جاره في العمل وفي السكن، وأوّل علامات الرضا عنه في عمله الجديد ستمرّ حتمًا عبر بوابة هذا الجار، فليحرص على مفتاح الرزق بمكَّة المكرَّمة..
سيصبح محيي الدين الهنديّ سريعًا صديقًا مميّزًا لدى سامي المصريّ.. على العكس من معين الذي رصد هيمنة مصريّة على دولاب العمل بالشركة السعوديّة اللبنانيّة فلم يستطع أن يحبّ سامي، فقط لأنَّه مصريٌّ آخر!!

طقوس محيي اليوميّة ثابتة لا تتغيَّر أبدًا.. يظلّ في الدوام تحت أمر موظفي الفرع.. ينظِّف المكاتب والأجهزة من الأتربة.. ويمسح الزجاج ويلمِّعه بالسائل البخَّاخ.. ثم يمسح الأرضيّات بالماء والصابون.. ويرشّ مكتب المتولي بمعطِّر الجو ويفتح مكيّف الهواء قُبيل موعد الدوام ثمّ يُغلق المكتب ليظلّ باردًا منعشًا لاستقبال المتولي وزائريه..

يقدِّم المشروبات والماء المثلَّج كلّما طُلب منه ذلك، لا حساب عنده لعدد مرّات الطلبات.. يُؤمر فيطيع.. وللمتولي طلبات خاصّة في المشروبات التي يتناولها.. فهو حائر في زيادة وزنه المتصاعدة، يريد إيقافها بأي شكل.. كلّ أسبوع يسمع عن وصفة جديدة للتخسيس أو إيقاف زيادة الوزن يتّبعها عن طريق محيي.. إمَّا أن يقدِّم له في الصباح مشروب الزنجبيل الساخن، أو مشروب الزنجبيل مخلوطًا بالليمون، أو مشروبات أخرى يأتي بها في علب كرتون تشبه علب حفظ الأدوية يوضع كيس صغير منها في كوب الماء المغليّ..

محيي ينفِّذ فقط بتفانٍ وأدب.. لا يسأل ولا يناقش ولا يحاول حتى أن يفهم..

استراح له المتولي بسرعة على غير عادته في اعتماد الموظفين والعاملين معه.. يرى فيه نعم العامل الجيّد لما يعتقده فيه من بلاهة وتخلُّف..

ومحيي نهم لمعرفة الكثير، أسئلة كثيرة تقف عاجزة في عقله، لا يسمح لنفسه أن ينقلها إلى لسانه إلا إذا انفرد بسامي في غير وجود أحد من منسوبي الشركة الآخرين.. سامي فقط الذي يعرف الكثير عن محيي وحياته وظروفه وعائلته أيضًا..

محيي لم يتعلّم أبدًا أيّ فن من فنون طهي الطعام.. ولذا فمن طقوسه اليوميّة المقدَّسة أنَّه يستلم طعام غدائه بعد صلاة الظهر من متعهِّد لأحد المطاعم المنزليّة.. مندوب لأسرة هنديّة تقوم بطهي الوجبات وتوزيعها على العمَّال الهنود يوميًّا وفق جدول صارم، مقابل مبلغ شهريّ معقول من الريالات، يستلم محيي طعامه في الثانية عشر ونصف يوميًّا ثم يغلق على نفسه باب المطبخ ليتحوَّل لمدّة ساعة يوميّة إلى سكن خاصّ لا يفتحه عليه أحد.. يخلع قميصه وسرواله ويرتدي الفوطة.. يتناول طعام الغداء ويشرب الشاي.. ثم يرتدي زي العمل ويفتح باب المطبخ بعد ساعة من الراحة

بالتمام والكمال..
بعد انتهاء دوام الشركة في الخامسة بعد العصر، يقوم بجولة جديدة من تنظيف المكاتب والزجاج والأرضيّات، يغسل الكؤوس والأكواب، ويرصّ كلّ شيء في مكانه.. ويحمل كيس القمامة هابطًا من المكتب قُبيل السادسة كلّ يوم، ليضعه في صندوق (البلدية) كما يُطلقون عليه.. ويأخذ طريقه إلى الحرم سيرًا على الأقدام لمسافة تقترب من ثلاثة كيلو مترات..
في طريقه إلى الحرم لا يسلك إلا طريقًا واحدًا.. وجانبًا واحدًا على الطريق لا يغيِّره أبدًا.. ينطلق من أسفل المكتب متخطِّيًا إشارة مرور الغزَّاوي ثم إشارة البيبان، ثم يسير بمحاذاة كوبري جرول ثم ينحرف يمينًا قاطعًا حي جرول، وجرول التيسير، فطريق طلعة جبل الكعبة إلى الحرم المكِّي الشريف، من جهة باب الملك فهد.. يصلِّي المغرب والعشاء وبينهما يقرأ القرآن أو يطوف بالكعبة.. ثم يبدأ رحلة العودة سالكًا نفس الطريق.. يعبر الطريق قُبيل إشارة مرور الغزَّاوي مباشرةً إلى محل فرن خبز التميس والفول بالعَدَس.. يشتري بريال فول بالعَدَس أو قِلابة، وبريال تميس يكفيه لعشائه وإفطاره

لليوم التالي، وربما يفيض منه..
ويعود مباشرة إلى المطبخ، يغلق عليه بابه ويشعل مكيِّف الهواء، ثمّ يتناول عشاءه وينام.. وربما ظلّ ساهرًا في الظلام.. لم يحاول مرَّة واحدة رغم صداقته لسامي أن يتجاذب معه أطراف الحديث فيما بعد عودته من صلاة العشاء بالحرم.. بل هو يغلق باب المطبخ إيذانًا بانتهاء فترة السماح أمام سامي لاستخدام المطبخ في إعداد متطلباته هو أيضًا.. محيي لا يحبّ أن يدخل عليه أحدٌ المطبخ وهو نائم أو يستعد للنوم..
ولا يسمح لصداقته لسامي أن تغيِّر من عاداته قيد أنملة.. حدود صداقته تتوقَّف عند حدود الدوام والساعة التي تسبقه عندما يستيقظ سامي مبكِّرًا..
سامي يعرف أنَّ محيي من منطقة كيرلا في الجنوب الغربيّ من الهند.. ويعرف بعض الحكايات عن كيرلا وعن جوز الهند الذي يُزرع بكثافة فيها.. وعن قطعان الفِيَلة التي تعبر المزارع والغابات بالقرب من منزل عائلة محيي أو المنطقة التي يعيش فيها، وعن عادات الهنود وعن ظروف المسلمين فيها.. ويعلم أنَّه متزوج وله ابنتان زهرة ونرجس!

يعرف متى ستحجّ السيدة أُم محيي، عندما يكتمل ما تدَّخره من مال يرسله لها لهذا الغرض محيي وعبد القادر.. ويعلم قسوة معاملة عبد القادر له وشدَّته عليه.. وهو الذي يتسلَّم له الراتب كل شهر من الإدارة في جدَّة.. ثم يرسل له مصروفًا شهريًّا قَدَّرَهُ بمعرفته.. ويرسل الباقي إلى الهند..

يدرك سامي حرص محيي على الذهاب مرَّة كل شهر، وأحيانًا مرَّتين في الشهر، مساء يوم الخميس إلى جدِّة لزيارة عبد القادر وأسرته.. فمحيي يرِّق لابنة شقيقه ويرى في براءتها صورة ابنتيه.. كما يستريح أكثر لمعاملة زوجة عبد القادر!!

ينظر محيي طويلا بنظراته الحادّة من عينيه السوداوين الحادّتين إلى سامي، ثمّ يقول وعلى وجهه شبح ابتسامة باهتة صفراء:

- أحب زوجة عبد القادر كشقيقتي.. لم أسمح لنفسي مرَّة أن أنظر إليها سوى على أنَّها شقيقة.. رغم رقَّتها وتعاطفها معي.. وهي تحاول دائمًا أن تخفِّف عنّي حدَّة عبد القادر معي.. وتشرح لي بعض الظروف والأسرار والتصرُّفات.. عندما يكون

عبد القادر غائبًا عن المنزل..

يكتفي سامي بابتسامة متعاطفة..

- أحرص على الذهاب لزيارة عبد القادر مبكِّرًا عن موعد عودته للمنزل لأجلس مع زوجته التي أرى فيها شقيقتي ساعة في وجود ابنتها، لأعرف منها ما يدور في العائلة وما يدور في العمل أيضًا!!

يصمت محيي في حزن، ثمّ يرفع رأسه ويردف في تبرّم:

- عبد القادر هو المتولي في العائلة..

يضحك سامي من مفاجأة التشبيه..

يضيف محيي وهو غارق في حزنه:

- في كلّ مكان.. في كلّ شركة، وفي كلّ عائلة، وفي كلّ بلد يوجد المتولي.. أنا لا أتحدَّث معك أستاذ سامي إلا عندما يذهب المتولي.. ولا أتحدَّث إلى زوجة شقيقي إلا عندما يغيب المتولي عبد القادر!!

يقطع استرسال محيي صوت جرس الباب، ينتفض محيي فزعًا خوفًا من أن يكون المتولي قد حضر مبكِّرًا.. في خطوتين يصبح أمام الباب، وهو يطلق دانة مدفعه:

- هه؟

القادم هذه المرَّة حسن المطوِّع السبَّاك المصريّ، بصخبه وضجيجه وصوته الجهوريّ وابتسامته العريقة:

- أين عمَّك يا ولد يا محيي؟
- عمِّي سامي؟ بالداخل..
- عمَّك سامي!! أنا أسأل عن عمَّك المتولي يا ولد؟
- المهندس متولي لم يحضر بعد..
- أحضر لي كأس ماء مثلَّج.. فاهم؟ مثلَّج.. وفنجان نسكافيه.. وزد الحليب مع مُبيّض القهوة.. سأجلس مع عمَّك سامي بعض الوقت..

يظهر حسن بقامته المديدة وقوامه المشوق ولحيته الكثَّة الفاحمة، وتي شيرت زرعيّ اللون مخطَّط بالعرض بالأسود، في بؤرة نظر سامي وهو جالس إلى مكتبه يتشاغل عنه بمتابعة شاشة الكمبيوتر، قوامه وهيئته تذكِّره دائمًا بجنود الصاعقة في الجيش.. سامي لا يستريح كثيرًا لقدوم حسن المبكِّر لمقرّ فرع الشركة.. يعتبره كثير الصخب، وأكثر عشمًا ممَّا تتيحه العلاقة من جهة، وممَّا تتيحه مكانته كذلك في الشركة، فهو في النهاية مقاول الأعمال الصحيّة يقوم بالعمل من الباطن وفق عقد داخليّ بينه وبين الشركة، مثله مثل

أيّ مقاول آخر يقوم بتنفيذ الأعمال من الباطن.. هؤلاء ليس لهم تعامل مع الإدارة التي يمثِّلها سامي والمهندس متولي إلا في حدود ثلاث مناسبات.. الأولى عند كتابة عقد الباطن بينهم وبين الشركة، والثانية عند كتابة مستخلص الأعمال التي تمّ تنفيذها حتّى تاريخ معيّن، والثالثة عند استلام دفعة من الحساب سواء نقدًا أو شيكًا على البنك.. في غير هذه المناسبات، تنحصر العلاقة بين المقاولين والشركة في التعامل مع الإدارة الفنيّة للمواقع والمشروعات، أي مع المراقبين في المواقع ومع المهندس متولي..

حسن السبَّاك يختلف عن هؤلاء المقاولين في شيءٍ واحد، فهو على كفالة الشركة، ولذا فهو يعتبر نفسه ابنًا من أبنائها وشريكًا في إدارتها، فلقد مارس العمل فيها فترة موظَّفًا كعامل براتب شهريّ، ثمّ أصبح مشرف عمَّال، ثمّ انتقل للعمل لحسابه كمقاول صحيّ.. عشمه الزائد وتدخُّله في شؤون من صميم أعمال الإدارة، وأحيانًا منطقة السيادة المطلقة لسامي في تخصِّصه داخل الفرع.. يُزعج سامي بشدَّة.. لكنَّ علاقة حسن القويّة جدًّا بالمتولي تجعل سامي حذِرًا في إظهار امتعاضه تجاه

تصرّفاته الرعناء.. يتجاوب معه في أقلّ قدر ممكن، ويتجاهله كلّما أمكنه التجاهل.. بعشمه الزائد يهتف حسن بصوته الجهوريّ:

- إيه يا عمّ سامي.. صباح الخير أوّلا.. أنت جالس هنا.. يبدو أنَّك تتابع الجرائد على الإنترنت.. وتارك كلّ هذه الكوارث تحدث في الشركة من خلف ظهرك؟!

يشيح سامي عينين قلقتين من على شاشة الكمبيوتر، وينظر في غير ترحاب لمحدِّثه وهو يقول:

- خير يا حسن كفى الله الشرّ؟ ما الذي حدث في الشركة هكذا على الصباح في أوّل الدوام؟ هل أقبلتْ فرق تفتيش الجوازات فقبضت على العمَّال من غير كفالة الشركة؟
- لا المسألة ليست مسألة دوريّة الجوازات.. هذه أمرها بسيط.. تعوَّد أغلب العمَّال على التعامل معها، إما بالهرب في الأدوار العليا، أو القفز إلى البنايات المجاورة، وبعض من يمسكهم الجنود يتمّ إطلاق سراحهم قبل الوصول لسيّارة الترحيلات مقابل ثلاثمائة ريال للعامل.. إذا استطاع المِعَلِّم

وضع المبلغ في كفّ الجندي قبل أن يسجِّل اسم المقبوض عليه في كشف الترحيلات!!

- ما بك إذن؟ لمَ هذا الانزعاج على الصباح؟
- يا عمّ سامي ألا تدري بما يفعله المتولي بالفرع؟ هذا الرجل لن يتوقَّف حتّى يغلق هذا الفرع.. وربما تعلن الشركة نفسها إفلاسها بسبب أفعاله..
- يا أخي اتّقِ الله.. وتوقَّف عن إطلاق الشائعات في حقّ الرجل..

قاطعه حسن بصخب:

- ولمَ أُطلق في حقِّه الشائعات؟ بيننا عيش وملح.. غير أنَّ ما يتمادى فيه الآن كثير.. بل كثيرٌ جدًّا..

صمت برهة من الوقت ليتأكَّد من أنَّه أثار فضول سامي.. واستغلّ هذه الفرصة فصاح مناديًا محيي مستعجلا إحضاره النسكافيه.. محيي يتعمَّد التأخير في تلبية طلباته، ربما تضامنًا مع سيّد سامي الذي يظهر ارتياحه دائمًا على وجهه بعد انصراف حسن.. وربما توقِّيًا للعديد من الطلبات الأخرى التي سيمطره بها

لاحقًا إن هو أسرع في تلبية طلبه الأول..
خلال هذه الجلبة التي أحدثها حسن في المناكفة مع محيي، عاد سامي يتعامل مع شاشة الكمبيوتر، ثمّ أخذ يكتب عن طريق لوحة المفاتيح.. يوَّجه رسالة مباشرة لحسن أنَّه غير مهتمّ سلفًا بما سيخبره به من شائعات..
رفع حسن صوته من جديد بعدما أخذ أوّل رشفة من فنجان النسكافيه مُحدثًا صوتًا مقزِّزًا:

- ألا تريد أن تسمع ما يحدث يا عمّ سامي؟ مع أنَّك مسؤول وشريك هنا في إدارة الفرع، وكلّ ما يدور فيه من مصائب سيكون مسؤوليّتك مع المتولي وأبي عصام وعصابتهما؟

لا يتأثَّر سامي بلهجة التهديد المباشر أو غير المباشر.. لذلك لم يلتفت كثيرًا، وإن توقَّف عن الكتابة مؤقَّتًا..
قال حسن:

- المتولي يا سيدي ألحق شقيقه رضا بالعمل كمراقب في قصر الدكتور حسن عون بالعوالي..
- وماذا في ذلك؟!
- ماذا في ذلك؟! أنت أصلا لا تعرف من هو رضا.. رضا يا سيدي حمار وليس إنسان.. لا يفهم شيئًا..

وأكبر عمل يستطيع أن يؤدِّيه أن يكون عاملا يحمل البطحة والطوب.. عامل تشوين.. وعندما يكون مسؤولا عن أيّ عمل يخرِّبه.. وكانت له تجارب سابقة في الشركة من قبل.. في الماضي كان المتولي يلح عليّ وعلى غيري من المقاولين لتشغيله معنا كعامل باليوميّة.. فنتملَّص منه لغباء رضا وسوء تقديره للعمل.. فكيف يعيِّنه مراقبًا مسؤولا عن موقع في هذا القدر من الأهميّة؟!

كيف سيدير هذا الحمار العمل؟ يوزِّع الأدوار ويراقب دِقَّة التنفيذ؟ هذا جنون.. هذا خبل..

قاطعه سامي بشيء من صرامة:

- وهل عيَّن المهندس متولي شقيقه دون علم إدارة الشركة؟
- اسمع يا سيدي.. عيَّنه بعلم إدارة الشركة، وبراتب ثلاثة آلاف ريال شهريًّا غير البدلات وساعات الإضافيّ.. أي سيتقاضى في الشهر ضعف راتبك تقريبًا.. ما علينا من ذلك كلّه.. المصيبة أنَّ الذراع اليمنى أبا عصام قام بتسليم أوراق رضا

الرسميّة إلى الإدارة على أنَّه شخصٌ غريب، وأنَّه قام باختباره بمعرفته ووجده مناسبًا للعمل.. أولاد الإيه رفعوا اسم العائلة من جواز سفر رضا.. استخرج جواز سفر باسم ثلاثيّ ليس فيه اسم العائلة.. والناس في الإدارة لا تلتفت إلا إلى الاسم الأوّل واسم العائلة.. فهم مثلا يعرفون المتولي باسم المتولي عسكر.. ويعرفون رضا باسم رضا السيد..

غمغم سامي:

- ربنا يسهِّل لعبيده يا عمّ حسن..
- يظهر أنَّك على نيّاتك يا سيّد سامي.. الموضوع أكبر ممَّا تتخيَّل.. المتولي يسلِّم فرع الشركة الآن لأقاربه ومعارفه تسليم أهالي.. تشطيب لوكس فاخر.. الإتاوات تُفرض على عمّال الساركي باليوميّة..

عيسى الحارس لا يضيفون له ساعات الإضافيّ والحراسة، إلا إذا ضمنوا سكوته على ما يحدث.. رضا وأبو عصام يفرضون ضريبة.. عمولة على كلّ مقاول قبل كتابة أيّ عقد جديد.. كلّ

عقد يأتيك يا سيّد سامي لكتابته، للعصابة نصيب يتراوح بين عشرة إلى عشرين في المائة من قيمة سعر المتر أو قيمة التعاقد.. وإلا لا يوافق المتولي على إتمام التعاقد..

تساءل سامي في انزعاج:

- والمهندس متولي يعلم ذلك؟
- يووووه يا عمّ سامي.. انظر ماذا أقول.. وماذا تقول؟ يا سيدي كلّ هذا يحدث تحت إشراف المتولي وبتوجيهاته المباشرة.. نصف مبلغ النسبة عن كلّ مستخلص يصل مباشرة لحسابه الخاص.. والنصف الآخر يُقسَّم مناصفةً بين أبي عصام ورضا.. وتتمّ ترضية عيسى الحارس بشيءٍ لا يدفعونه من أنصبتهم ولكن بساعات إضافيّة يسجِّلونها له على الساركي وتدفع قيمتها الشركة المغفَّلة..

سأل سامي متشكِّكًا ومستنكرًا:

- وهل فعلوا معك أنت شخصيًّا ذلك يا حسن؟
- يا عمِّي لا يستطيعون.. أنا ابن الشركة وعلى كفالتها والإدارة في جدَّة تعرفني وتثق بي.. فهم

يخافون أن أشي بهم.. وطلقة المسدّس التي لا تُصيب تجلب الضوضاء.. لكنّهم سيحاولون اختلاق المشكلات معي في الفترة القادمة حتّى لا أحصل على عقود تنفيذيّة من الشركة.. ويجلبون سبَّاكين آخرين يفرضون عليهم جماركهم.. وسترى يا سيّد سامي..

ثم لماذا نذهب بعيدًا؟ عندك النجَّار السوري عادل زعتر.. سيأتيك اليوم يسأل عن الشيك الخاصّ به.. اسأله وانظر ماذا يُجيبك..

- الله.. الله يا سي حسن.. وهل علمت كذلك من سيأتي اليوم ومن لا يأتي؟!
- ألا ترى يا عمَّ سامي؟ حسن السبَّاك يعرف كلّ شيء..

قطع الحديث رنين الهاتف المحمول الخاصّ بحسن.. وعلى الفور نهض منزعجًا وهو يردّ على عمَّاله.. ارتفع صوته الجهوريّ ارتفاعًا فوق ارتفاع.. ثم رفع كفَّه بالسلام ومضى متعجِّلا.. كأنَّ كارثة حطَّت على الموقع الذي يعمل به..

ظُهرًا عندما سيحضر المعلِّم عادل زعتر السوري وهو نجَّار مُسلَّح بأحد المشروعات الإنشائيّة، سيبتسم له سامي بترحاب كبير دون أن يسأله عن شيء.. لكنّه سيلاحظ عندما يسلِّمه الشيك الخاص به، ويطلب منه التوقيع قائلا تسبقه ابتسامة متسامحة ودود:

- مبروك يا مِعَلِّم عادل..

سيلاحظ امتعاضه ثمّ غمغمته التي بدت واضحة:

- الله لا يبارك لهن.. ملعونين في كلّ كتاب..

بتغابٍ يسأل سامي وفي حذر:

- ماذا بك يا معلّمي؟ هل أنقصت الشركة مبلغًا من قيمة مستخلصك المستحقّ؟
- شو هذا الحكي يا سيّد سامي؟ أنت تكتب المستخلص بيدّك وتراجعه ثم تراجع قيمة الشيك عليه.. كيف بدِّهم يسوُّوا؟

دهشة سامي تتَّسع وهو يعلِّق:

- لماذا تمتعض على مبلغ الشيك إذن؟
- يا سيّد سامي.. أنا ممتعض من الضرائب التي تقتطع مبلغًا من المال من كلّ شيك نستلمه.. ما معلوم لك هذا الشيء؟

يتحدَّث المعلِّم عادل بلهجته السوريّة المحبَّبة لسامي.. يمطّ حروف الكلمات خاصّة عند نهاياتها.. وسامي يريد أن يستزيده من الحديث ولو كان ساخطًا حانقًا.. قال وما زال يتصنَّع الغباء:

- أما زالت سوريا تفرض ضرائب على تحويلات العاملين بالخارج؟
- يا خيُّو في سوريا وفي مصر وفي المملكة.. في كلّ مكان يوجد المتولي وأتباعه.. وهؤلاء الله لا يبارك لهن.. يفرضون الضرائب والمكوس على كلّ شيء.. شو بك ما بتعرف؟!

أرخى صوته واقترب برأسه من رأس سامي وهو يقول:

- يفرضون شو اسمه.. عندنا في الشام نقول إتاوة.. وعندكن تقولون عمولة.. أي مَصاري بنحصَّلها من كلّ شَغلة لا بدّ من ها الشيء..
- حسومات؟!

ظهر ضيق الصدر على ملامح المعلّم عادل وقال:

- هاد الشيء اللي طلع معك؟ حسومات؟ ما حسومات سيّد سامي، كأنَّك ما تدري بشيء.. هذه يأخذونها لجيوبهن ربنا لا يبارك لهن فيها..

يسأل سامي بخُبث وحذَر:

- والمهندس متولي يدري بهذه الأمور؟
- إيش بدَّك أحكي لأحكي.. المتولي هذا رأس الفساد في الشركة.. هو الأبضاي هون، وأبو عصام، وشو اسمه الجديد هاد، الله يعطيني اسمه، يقولون له رضا، هادول الصبيان تبعه..
- ولماذا تدفعون يا معلّم عادل، أليست أعمالكم سليمة وعلى حسب الأصول؟!

زفر المعلّم وهو يجيب:

- يا سيّد سامي أعمالنا مضبوطة عالتمام، ما عندنا أدنى شيء.. لكن لو ما بندفع مصاري، بدُّه يأخّرنا، ما بأحكيلك فكّ وتركيب خشب الأعمدة والأسقف لأتفه الأسباب، بس يتأخّر موعد صبّ الخرسانة بحجّة إنّ شركة الخرسانة مو جاهزة للصبّ، يوقف حالنا، ويعدّ علينا يوميّات للمعلِّمين والعمَّال.. مين يتحملهون؟! بس يحكي لك تدفع إذا بتريد، تقوله تكرم عينك خيي.. وشَغلتنا كلّها ما محرِزة، لكن إيش بدنا نسوِّي لنسوِّي؟ دير بالك على حالك

سيّد سامي، ما منيح كتير أجي على المكتب ما ألقاك فيه..

تتواتر وتتأكَّد المعلومات لدى سامي، يبيت ليلته مفكِّرًا في المتولي وأتباعه، ألهذا أمرَهُ أن يصبح شعاره لا أرى، لا أسمع، لا أتكلَّم؟! وكيف يتمّ التستُّر على هذا الكمّ من الفساد؟ يتساءل سامي في حيرة تحرمه النوم ليالٍ عدَّة، ماذا سيكون دوره في مواجهة عصابة المتولي؟ هل من الخير له أن يتعامى عمَّا يجري حوله؟ وماذا سيكون موقفه إذا ترامى الأمر إلى مسامع أصحاب الشركة؟ أين الأمانة والمسؤوليّة هنا، أن يكون حيث يريده المتولي؟ أم يكون حيث كلَّفه سعد بهلول الشريك اللبنانيّ بالشركة؟ وأين هو من ربّ المتولي والبهلول؟!

سينتابه القلق، وتمزِّقه الحيرة، وتتوتَّر أعصابه المتوتّرة أصلا بسبب افتقاده دعاء.. سيشعر ربما لأوّل مرة منذ بدأ رحلته بشعور أقسى وأمرّ من الغُربة، منذ سلَّم جواز سفره لإدارة الشركة فقد جزءًا كبيرًا جدًّا من حرّيّته، لم يكن يتخيّل أنَّه فقد حرّيّته كلّها، الآن يشعر بفقد القدرة على الاختيار، على الاستمرار في الانتماء للقيم

التي تربَّى عليها عمره كلّه!! يشعر أنَّ الاختبار الآن أعلى من استعداده السابق للمواجهة.. يبتسم رغمًا عن هواجسه إذ يتذكّر حواره في السنة النهائيّة لدراسته الجامعيّة مع رفيق دربه إبراهيم، قال له:

- تعرف يا إبراهيم لو تزوَّج كلّ منَّا فلا أظنّه سيرتكب أيّ ذنب في حياته.. فلا شيء في هذه الحياة ممكن أن يفتننا غير مفاتن الفتيات!!

أمَّن صديقه على ملاحظته بابتسامة وهزّة من رأسه، حيث سادت البراءة كلّ التصوَّرات للحياة.. الآن يكتشف أنَّ في الدنيا اختبارات أخرى أصعب من فتنة النظر إلى محاسن النساء، ماذا سيفعل أمام اختبار كتمان الحقيقة؟!

عاد محيي الدين الهنديّ من رحلته اليوميّة إلى الحرم، حاملا معه عشاءه اليوميّ، رغيف التميس، وعلبة فول القِلابة، حرَّكت الرائحة النفَّاذة للقِلابة شهيّة سامي، سيخرج في هذا الوقت المتأخّر من المساء، سيستهويه السير في هذا الطقس المختلف تمامًا عن لظى ساعات النهار، سيمشي تلك الكيلو مترات الثلاثة

قاطعًا نفس طريق محيي الدين إلى الحرم، يصل جائعًا، فهو لم يتناول سوى لقيمات على الإفطار، لم يشتهِ الطعام بعدها حتّى اشتهى رائحة القِلابة، يعرج على محل حمزة المنسي أمام باب الحرم، سيتناول طبق فول مصريّ بكسرة تميس، ويدفع ريالا واحدًا، ويخرج من المحل ممتلئ المعدة، لا مكان حتّى لقارورة البارد المستحبَّة لهضم الفول، خاصّة في المساء.. سيكتفي بشرب عدَّة كاسات متتاليات من ماء زمزم البارد من أول (كولمن) يقابله على يمين باب الدخول، سيدعو بما شاء قبل كلّ كوب يتناوله، وسيمضي إلى صحن الحرم، عدد الطائفين في هذا الوقت من العام، وفي هذا الوقت المتأخِّر من الليل لا يتجاوز بضع مئات!! ستكون فرصته أن يلمس الحجر الأسود بكفّه، وأن يقف في (سيرة) صفّ في انتظار تقبيله، تكون هذه من المرّات المعدودة التي يُقبِّل فيها الحجر، لحظة خاطفة، ثمّ يبدأ الطواف، تتاح له فرصة أن يصلِّي داخل حِجر إسماعيل عليه السلام، سيتقدَّم إلى أستار الكعبة، ويتعلَّق بها، ويُمرِّغ خديه على قماشها الفاخر، يستنشق عبَق بخور العود الكمبوديّ الأصليّ، سيعرف أن سعر الجرام منه يقترب من سعر

جرام الذهب!! سيدعو بما شاء، يطلب من ربه أن يبيّن له الحقّ من الباطل في قصّته مع المتولي، يعود من الحرم مغسولا من همومه الكثيفة، لن يقوى على العودة سيرًا، وسيكون الوقت متأخِّرًا عن عمل الحافلات، يضطرّ إلى السير إلى أول كوبري جرول حتّى يجد سيّارة أجرة بالنفر، ليدفع ريالين فقط في طريق العودة بدلا من عشرة ريالات.. تستهويه التجربة، سيعود لتكرارها في ليالٍ متعدِّدة تالية..

٤ - تصحيح مسار!

يتعاطف مع محيي الدين، فمحيي الدين شخص لا يسبِّب أدنى مشكلة على الإطلاق.. لكنَّه يفتقد الذكاء والحيويّة التي تفرض الائتناس به على سامي، سامي بحاجة إلى مرافقة شخص آخر يشاركه همومه، يغيب المتولي عن الفرع لعدَّة أيام متتالية لانشغاله الشديد في أعمال تسليم أحد المواقع، سيتَّخذها محيي فرصة لا تُتاح كثيرًا ليسرِّي عن نفسه مع سامي، سامي لا يفقه كثيرًا من حكاياته، يفتقد أيضًا لآليّة واضحة وناجحة لإفهامه ما يريد.. يلتفت سامي أخيرًا إلى حديث محيي الدين المطوَّل والمتكرِّر عن مالك بن دينار، يحدِّثه وعيناه هائمتان فهو يتحدَّث ولا شكّ عن قدِّيسٍ من القدِّيسين أو وليٍّ من أولياء الله الصالحين، سامي يعرف شيئًا يسيرًا عن أحد التابعين يحمل اسم مالك بن دينار، لكنَّه لا يعرف شيئًا عن ذهابه إلى الهند، سامي في الحقيقة لا يعرف كيف دخل الإسلام إلى الهند، وإن كان يظنّ أنَّه دخل الهند عن طريق الحركة التجاريّة

بين التُجَّار المسلمين وبين سكَّان البلاد، كما هو الحال في دخول الإسلام إلى بلدان وسط أفريقيا، وكذلك إلى جُزر إندونيسيا في شرق آسيا..

محيي الدين يُصرّ على رواية مختلفة كل الاختلاف، يحكي له عن كرامات سيّدنا مالك بن دينار التي تكاد تلحق بالمعجزات، واستقباله بشراب جوز الهند من قِبل الهنود، وكيف رأوا من حُسن أخلاقه وطيب معاملته ما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجًا.. لم يكن أمام سامي في تلك الصباحات عمل مهمّ وضروريّ، وبدا له أن يحاول الإنصات لحكايات محيي الدين، ومحاولة سبر أغوارها للوصول لما يريد قوله، يسترسل محيي الدين وينطق بعجب العُجاب بالنسبة لسامي، يقول محيي الدين، أو لعلّ سامي هو الذي فهم أنَّ محيي الدين قال:

- كان شيرومان بيرومال ملِكًا على منطقة كيرلا الهنديّة، وكان ملكًا عادلا يُحبّ شعبه ويحبّونه، وفي إحدى الليالي القمريّة بدا له أن يتفقَّد البلدة من فوق منارة قصره المنيف، فرأى عجبًا..

يزداد انفعال محيي الدين وترتفع وتيرة صوته مع المضيّ في القصّة، وتجحظ عيناه بشدَّة، ويرى سامي على

تقاسيم وجهه الساذج وقائع حكاية الملك شيرومان بيرومال، ويضيف:

- رأى الملِك أنَّ القمر قد انشقّ نصفين، رأى هذا الانشقاق واضحًا جليًّا، ثم إذا بشقّي القمر يلتئمان من جديد، ففزع الملك العادل، وأتعبته الحيرة، فجمع حكماء البلدة وسألهم عمَّا رآه، فلم يجدوا لما رآه تفسيرًا أو تأويلا، ولعلَّهم ظنُّوه واهمًا..

تستحوذ حكاية محيي الدين على انتباه سامي، فإنَّه يوشك أن يسمع منه تفسيرًا لقوله تعالى: (**اقتربتْ الساعةُ وانشقَّ القَمر**).. وإن بدا له أنَّ ما يوشك أن يسمعه الآن لون من تراث أهل الهند، حيث لم يسمع لمثل ما يقصَّ عليه محيي من قبل، ويزداد انفعال محيي الدين وقد لاحظ اهتمام سامي أخيرًا بما يقول، فيضيف:

- ولَّما لم يجد الملك تفسيرًا لما رأى من حكماء بلدته، طلب منهم أن يأتوا له بكل غريب يصل المملكة ليسأله عسى يجد عنده تفسيرًا.. وأقبلت قافلة تجاريّة من أرض العرب، فجمع الملك رجال

القافلة وسألهم، فحدَّثوه عن ظهور النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأن انشقاق القمر حدث كآية تحدَّى بها الله مكذِّبي رسوله.. دُهش شيرومان بيرومال ممَّا سمع وقرَّر مرافقتهم إلى جزيرة العرب لملاقاة النبيّ الخاتم، واستودع الملك شؤون مملكته لأبنائه وهاجر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقدَّم له هديّة من أرض كيرلا عبارة عن جرَّة عسل بالزنجبيل، وقبِل النبيّ هديّته.. ثم أسلم شيرومان بيرومال بين يدي رسول الله، فأسماه النبيّ تاج الدين، وقفل الملك عائدًا إلى الهند ومعه طائفة من الصحابة على رأسهم مالك بن دينار، فوافته المنيّة على شاطئ ظفار بعُمان، وعندما شعر بدنوّ الموت، أرسل رسائل إلى أبنائه وشعبه مع مالك بن دينار، وأوصاهم بإكرام وفادته هو وأصحابه من العرب، واتّباع دينهم، وأخبرهم أنَّه أسلم على يد رسول الله..

تنتهي حكاية محيي الدين عند هذا الحدّ، وقد أثار فضول سامي إثارة شديدة، لا يستطيع سامي أن يستوضح منه أيّ مرحلة غامضة من مراحل القصّة، لا

يعرف كيف يناقشه، ولا كيف يستفسر منه عن بعض التفاصيل.. لا يستطيع أن يستوثق من قدرة محيي على النقل الصحيح للرواية التي يزعم انتشارها في الهند، يتوراثها جيلٌ عن جيل من المسلمين، ولا يتأكَّد من مدى استيعابه هو شخصيًّا لكلّ مراحل القصّة!!

سامي شغوف بقصص السيرة النبويّة، قرأها من عدَّة مصادر مختلفة كاملة فلم يقف للقصّة التي يرويها محيي الدين على أثر!! لكنَّه يدرك أيضًا أنَّ مسلمي الهند من أكثر شعوب الأرض عناية بجمع وتقصِّي سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حتى أحرزت شبه القارّة الهنديّة قصب السبق في الدراسات الحديثة حول السيرة، كالمباركفوري صاحب كتاب الرحيق المختوم على سبيل المثال..

سيطلب سامي من محيي إعداد فنجان إضافيٍّ من النسكافيه، وسيعمل بدأب على محرِّك بحث (google).. سيبحث عن اسم الملك الهنديّ شيرومان بيرومال، وسيتحقَّق من صدق رواية محيي الدين في كثير من جوانبها، سيعرف أنَّ هذا الملك الهنديّ الشهير الذي قابل النبيّ وأصبح صحابيًّا، يعرفه التاريخ

بأكثر من اسم منها اسم سرباتك.. وسيعرف أنَّ هذه الرواية موثَّقة تاريخيًّا وإن اختلف المؤرِّخون في بعض الوقائع والأسماء، وتأكيدهم على أنَّ مالك بن دينار كان تابعيًّا ولم يعاصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم..

سيتعلَّم سامي من حكايات محيي الدين أشياء أهمها الإصغاء إلى محيي الدين ذاته.. يحاول لاحقًا أن يعرف منه صورة عن حياة المسلمين في الهند، بعدما يحاول أن يعرض عليه الصورة المتداولة عربيًّا والتي تُعرِّف مسلمي الهند كشعوب مضطهدة معتدى عليهم من قبل متطرِّفي الهندوس والسيخ، سيسأله عن مسجد بابري ومدينة بومبيه، وعن رئيسة الوزراء الراحلة أنديرا غاندي الملقَّبة في الصحافة الإسلاميّة بالعالم العربيّ بالقطَّة الشرسة!!

يكتشف سامي لاحقًا أنَّ كثيرًا مما قرأه وسمعه عن اضطهاد الأقليّات المسلمة في العالم مجرّد أوهام تجاريّة سياسيّة، لا تمُتّ للواقع بصلة، وأنَّ كثيرًا من شعوب الأرض وحضاراتها تُطبِّق مبدأ التعايش المشترك بشكل عمليّ أكثر نصاعة من كثير من المطالبات الدوليّة لمنظمات حقوق الإنسان!! سيتساءل عن هذه

التعبئة الدينيّة الخطرة والمقصودة لإزكاء الشعور الدينيّ، وسيفهم لماذا تتعصَّب بعض الكُتل الثقافيّة الغربيّة ضدّ المسلمين بسبب تعميم وتضخيم الحوادث الفرديّة الطائفيّة والإرهابيّة التي يمارسها بعض المهووسين من أتباع الدين الإسلاميّ، بحيث تُصدَّر إلى شعوب العالم باعتبارها إرهابًا نابعًا من تعاليم الإسلام ذاته، وأنَّ تفجير العُزَّل، أو دهسهم، أو قطع رقابهم، يتمّ كطقس من طقوسه الاعتياديّة!! سيفهم ذلك بالقياس على حكايات محيي الدين الهنديّ عن أحداث مسجد بابري وعن المتطرِّفين السيخ والهندوس، سيفهم منه أنَّ التطرف السيخيّ والهندوكيّ وكراهية المسلمين في الهند استثناء محدود وليس مرتبطًا بحال بالتعاليم الدينيّة للطائفتين، وأنَّ حُرّيّات المسلمين تُمارَس على نطاقٍ واسع، وأنَّ كيرلا نفسها ذات الأغلبيّة المسلمة ولاية تتمتَّع بما يشبه الحكم الذاتيّ، وأنَّ التقاليد الإسلاميّة تتمتَّع بممارسة لا يراها محيي الدين في المعاملات اليوميّة للمقيمين في العاصمة المقدَّسة مكّة المكرَّمة ذاتها!!

يُدهش سامي بشدَّة عندما يعلم من محيي الدين

أنَّ الحكومة المحليّة لولاية كيرلا الهنديّة طبَّقت قرارًا يقضي بمقاطعة شركات المياه الغازيّة أمريكيّة الجنسيّة، في أوج المطالبات الشعبيّة لعموم المسلمين بالعالم بمقاطعة المنتجات الأمريكيّة احتجاجًا على مساندة الأمريكان للصهاينة.. لتصبح بذلك حكومة كيرلا هي الحكومة الرسميّة الوحيدة في العالم التي تجعل المقاطعة الاقتصاديّة للولايات المتّحدة مرسومًا رسميًّا!!

وسيُدهش أكثر عندما يعلم أنَّ الأبقار، وهي الحيوانات المقدَّسة عند الهندوس، يُسمح بذبحها اعتياديًّا في ولاية كيرلا ذات الأغلبيّة المسلمة!!

إنَّ للمسلم في الهند الحقّ أن يعيش مسلمًا، وأن يمارس كافَّة تعاليم دينه الظاهرة والباطنة دون أدنى تقييد على حرّيّته!

محيي الدين العاميّ البسيط الذي لم يتمتَّع بقسطٍ وافرٍ من التعليم، ولا ينتمي إلى ما يمكن وصفه بطلاب العلوم الشرعيّة، لا يؤدِّي الصلاة حاسر الرأس أبدًا، حفاظًا على ما يعتقد أنَّه سُنَّة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المذهب الحنفيّ.. فكيف ينظر محيي

إلى المصريّين وغيرهم وهم يصلُّون حاسري الرؤوس؟ هل يعتبرهم مقصِّرين في تطبيق سُنَّة النبيّ؟ أم جُهَّالا بسنَّته؟!

محيي الذي يُعدّ نموذجًا للمسلم الهنديّ البسيط سيحدِّثه مطوَّلا وبإجلالٍ مبالغٍ فيه عن المهاتما غاندي، سيستطيع فرض احترام وتقدير غاندي على سامي أكثر ممَّا استطاعت أن تفرضه عليه قراءاته السابقة واللاحقة عنه!! سيعرف حقيقةً كيف ينظر مسلم هنديّ نصف متعلِّم إلى زعيم هندوسيّ مثل غاندي نظرة تقترب من نظرته إلى القدِّيسين، وسيعرف شيئًا عن ملحمة الملح التي واجه بها غاندي الاحتلال البريطانيّ!!

بسبب محيي الدين الهنديّ سيستطيع سامي التمييز بين عقيدة الزعيم الساكنة في أعماقه، وبين بسالة مقاومته للاستعمار والقمع، ومنجزه الإصلاحيّ في الحياة! فالمهاتما غاندي زعيم قَهَرَ الإمبراطوريّة التي لا تغيب عنها الشمس بالمقاومة السلميّة ومنهج اللا عنف، وظلّ رغمًا من ذلك يؤمن بقداسة البقرة، وأنَّها أولى بأُمومة البشريّة، وأنَّها أقرب إليه من أُمِّه التي

أرضعته وأفضل منها، لأنَّ الأُم البشريّة تحتاج لمصروفات عند موتها بينما الأُم البقرة لا تحتاج إلى شيءٍ من هذا!! محيي الدين البسيط الساذج يجمع في عقله بين احترامٍ مبالغٍ فيه للمهاتما غاندي كبطلٍ وطنيّ عن جدارة واستحقاق، وبين الخصوصيّة الاعتقاديّة لديه حيال البقرة التي يبارك ذبحها على شرع الله بينما يقدِّسها الآخر!!

سيسأل سامي نفسه لاحقًا عن الحرب الكونيّة الجُهنَّميّة التي يشنُّها العالم على الإسلام والمسلمين، حتّى دعى ذلك الأستاذ جلال العالِم أن يكتب كتابًا بعنوان: قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله!!

لقد جاز شيئًا من هذا في الممارسات التي مارسها الأسبان على المورسكيّين في الأندلس، وربما صحّ بعضه في بعض دول أوربا الشرقيّة التي سقطت تحت نير الشيوعيّة المتطرِّفة، لكن أن يعمِّم ذلك حتّى يجعل المسلم يعتبر أنَّ الإيمان بنظريّة المؤامرة الكونيّة جزءٌ من إيمانه بعقيدته، فهذه كارثة مُحقَّقة، تسحق أي فرصة للتعايش المشترك بين بني البشر!! يفهم سامي أنَّ الصراع بين الخير والشر، أو بين الحق والباطل، أو بين

إبليس وبين المؤمنين من عباد الله، قائم منذ الأزل، ومستمرّ إلى يوم القيامة، لكنَّ ذلك يمضي وفق نظريّة التدافع التي أقرَّها القرآن الكريم، وليس ضمن نظريّة المؤامرة الكونيّة المحتومة..

كل هذه الأفكار التي تحتدم برأس سامي نتيجة احتكاكه بمحيي الدين الهنديّ ستُخرجه ولو مؤقَّتًا من حالة الترصُّد لما يجري حوله في فرع الشركة من وراء ظهره.. وستكتسب زخمًا خاصًّا عندما يلتقي عبد الرحمن البرماوي الذي حضر إلى المكتب لإصلاح كالون باب إحدى الغرف.. يكتسب سامي صداقات الشباب من جنسيّات مختلفة بنفس سرعة نفوره الاعتياديّ من شخصيّات مصريّة مثل المتولي وأبي عصام وحسن السبَّاك!

تتوطَّد العلاقة سريعًا بين سامي وعبد الرحمن البرماوي، سيصحبه في زيارات كثيرة لأماكن تجمُّعات الأهل والأصدقاء في أحياء النكَّاسة، والكعكيّة، وآخر حيّ المسفلة القريب من الحرم المكِّي، في سوق النكَّاسة، أو في سوق أرزاق البحر للأسماك والمأكولات البحرية بالكعكيّة، سيظنّ سامي نفسه في أحد أسواق بنجلاديش،

أو أراكان (راخين)- الإقليم المسلم في بورما- ، كلّ البائعين والعاملين في السوق من أبناء بورما وبنجلاديش، وأمَّا زبائن السوق من العرب فيبدون كسيَّاحٍ يشترون احتياجاتهم من قلب بلدٍ آسيويّ في الجنوب الشرقيّ من القارة الصفراء! كلّ وجوه البائعين صفراء تميل إلى السمرة، كلّ قاماتهم قصيرة أو تميل إلى القصر، كلّ أجسادهم نحيلة، لكنَّ ما راع سامي حقًّا، وكاد يصيبه بالرعب فضلا عن الاشمئزاز، هو أنَّه رأى أغلب هذه الوجوه الصفراء المائلة إلى السمرة، تقوم بمضغ أوراق نبات ما، فإذا بشفاههم وألسنتهم وأسنانهم حمراء فاقعة بلون الدم، كأنَّه يرى أبطالا لفيلم رعب عن مصّاصي الدماء على شاشة سينما ثلاثيّة الأبعاد.. ولفتت نظره تلك الألواح الخشبيّة التي يعلِّقها الشباب في أعناقهم، فيفردونها في السوق على جانبي الطريق الضيّق المزدحم بالزبائن والمكتظّ أساسًا بالبائعين، ثم يضعون عليها أوراق نباتات خضراء، عرف فيما بعد أنَّها أوراق نبات التنبول، وهي أوراق قريبة التأثير على ماضغها من أوراق التبغ، فيضعون في هذه الورقة الخضراء قطع جوز الأريكا، والتي تُعرف كذلك ببذور

الفوفل، ويخلطونها بالجير المطفيّ، أو كما يسمُّونه بالنورة، بعد طفيها بالماء، ويتمّ لفّ ورقة التنبول وبيعها للمدمنين لا سيّما من أبناء وسط وشرق آسيا من البورماويّين وأبناء بنجلاديش والباكستانيّين، وبعض الهنود، وكذلك بعض الجاوة من أبناء إندونيسيا، هذه الجرعة من التنبول المحشيّ يتمّ مضغها في الفم لساعات، وهي التي تُعطي الفم والأسنان هذا اللون الأحمر الدمويّ المثير!!

ونبات التنبول وكذلك نخيل الأريكا – الفوفل- لا يُزرعان أساسًا إلا في بورما وبنجلاديش وسريلانكا وبعض مناطق الهند، لا يعرف سامي كيف يتمّ إدخال هذه النباتات المسبِّبة للإدمان، فضلا عن مسؤوليّتها عن سرطان الفم، إلى المملكة، وخاصّة إلى الأحياء العشوائيّة في العاصمة المقدَّسة!

بائعو التنبول ومتعاطوه، بالإضافة إلى بائعي أوراق القات، سيصيبون سامي بالاشمئزاز إجمالا من سوق قوز النكَّاسة، لكنَّه سيتردَّد عليه فقط بدافع لقاء عبد الرحمن البرماوي في بعض الأحيان!

عبد الرحمن البرماويّ الذي يعمل في محلّ لصُنع

المفاتيح وإصلاح كوالين الأبواب، في أول شارع المنصور من جهة ميدان الغزَّاوي، ليعيل أسرته الكبيرة نسبيًّا التي تتكوَّن من عشرة أفراد بينهم أبٌ شيخ طاعن في السن عاجز عن العمل، وأُمٌّ مريضة، وسبعة من الإخوة والأخوات، أغلبهم في مراحل تعليميّة مختلفة في مدارس خيريّة خاصّة بالجالية البرماويّة.. وهو شابّ في العشرين من عمره، تنطق ملامح وجهه، وبنيته الجسديّة بجنسيّته، يُطلق رفاقه عليه: المطوِّع، بسبب تلك الشُعيرات الطويلة الناعمة النابتة متناثرةً أسفل ذقنه. وهو طالب علم في حلقات تحفيظ القرآن الكريم، كاد أن يُتمَّ حفظ كتاب الله، رغم أعبائه العمليّة، وفقر أسرته!

يعترض عبد الرحمن بشدَّة على وصفه والبرماويّين عمومًا بالمغتربين أو المقيمين بالمملكة، ويعرِّف نفسه بأنَّه من أبناء الجاليات، يقول عبد الرحمن أنَّ الجالية البرماويّة تختلف عن المغتربين المصريّين أو السوادنة، أو الشوام أو غيرهم.. فالوافدون للعمل بالمملكة لا يزالون على ارتباطهم الوثيق بأوطانهم الأصليّة، لهم فيها أهل وأصدقاء وذكريات، وأغلبيّتهم الكاسحة

يحافظون على قضاء أجازاتهم في تلك الأوطان، ويحوِّلون مدَّخراتهم إليها، ويسعون للاستثمار المستقبليّ فيها، وهم في النهاية يعودون لأوطانهم إن عاجلا أو آجلا.. أمَّا الجالية البرماويّة –على سبيل المثال- منقطعة الجذور قطعًا تامًا مع الوطن الأصليّ.. البرماويّة لاجئون، البرماويّة لا وطن لهم يعودون إليه، والوطن الذي وُلِد أغلبهم فيه، يعشقونه ولا يعرفون لأنفسهم وطنًا سواه، يقبلهم على مضض، شريطة أن يظلُّوا منفيّين في العشوائيّات وفي سفوح الجبال وعلى قممها أيضًا.. ينظر بنظرات حادّة مفاجئة إلى سامي ويسأله:

- هل تعرف جبل الشراشف؟
- لا
- في يومٍ ما سأصحبك إلى زيارته، لترى بعينيك كيف يعيش بعض أقربائي هناك على ارتفاع نحو ثلاثمائة وستين مترًا عن الطريق العام.. هل تعرف كيف تصعد جبلا سالكًا طُرقًا من المدقَّات الحجريّة الوعِرة، حاملا أسطوانة غاز ممتلئة، أو جالونين من ماء زمزم للشرب؟!

تتلألأ الدموع في عيني عبد الرحمن قبل أن يبدأ في رواية قصّة أهله وهجرتهم الاضطراريّة إلى مكّة.. قبل نحو أربعين عامًا هاجر الشابّ نظام الدين وقد كان عمره آنذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين بقليل، ضمن طائفة من الأهل وسكّان القرية التي كانت تتعرَّض للحرق على أيدي البوذيّين المتطرِّفين، الكثير من الأهل قُتلوا قبل أن يتمكّنوا من المغادرة، وبعضهم مات غرقًا في البحر قبل الوصول إلى شواطئ بنجلاديش.. بنجلاديش لم يكن في استطاعتها استيعاب عشرات الآلاف من المهاجرين إليها من إقليم أراكان، ولم يكن أمامها إلا إعادة الكثيرين منهم إلى بورما، ما كان يعني تعريضهم للهلاك المحقَّق.. بعض الآلاف نزحوا إلى باكستان، وآلاف أخرى استطاعوا الوصول إلى السعوديّة.. من بينهم الفتى نظام الدين، الذي كان قد فقد معظم عائلته في محطّات الفقد المختلفة، فمنهم من استطاعت السلطات في بورما منعهم من المغادرة، ومنهم من استطاعوا التسلّل إلى بنجلاديش، ومنهم من استقرّ في باكستان، كما كان منهم من هلك في الرحلة الشاقّة

الطويلة بين بنجلاديش وباكستان.. منحت السُلطات السعوديّة نظام الدين إقامة في أراضيها بمهنة مجاور للعبادة، ضمن عشرات الألوف من البرماويّين النازحين إليها، اختار نظام الدين السكن بمكّة المكرَّمة، بينما اختار البعض الإقامة بالمدينة المنوّرة، أو السكن بمدينة جدَّة.. نظام الدين الفتى ذو الخمسة والعشرين عامًا لم يكن يتكلَّم إلا اللُغة التي تُعرف بالروهنجيان، وهي لغة مسلمي بورما، لم يكن يعرف شيئًا عن اللُغة العربيّة، سوى ما يحفظ من بعض قصار سور القرآن الكريم! وصل إلى مكّة لا يمتلك من الدُنيا سوى جسده النحيف، وملابس رخيصة فوق هذا الجسد، أبلاها طول السفر ومشقَّته، ولا مقوِّمات أخرى للحياة غير ذلك! كان مطلوبًا منه أن يعمل ليجد ما يأكله، ويعيش في مجتمع لا يعرف عنه أدنى شيء من قبل، من حالة نظام الدين وأشباهها تكوَّنت مجتمعات أشبه بالمستعمرات، أو (ghettos)، تمركزت في المناطق الجبليّة المحيطة بالحرم، مثل جبل الشراشف، وقوز النكَّاسة، والحارات العشوائيّة شديدة الضيق كثيرة التعاريج مثل دَحلِة الرُشد.. عمل نظام الدين في النجارة والتجارة المحدودة

لبعض السلع الغذائيّة الرخيصة، وتعلَّم لهجة أهل الحجاز بلكنة أجنبيّة، وكان عليه أن ينتظر نحو عشر سنوات كاملة قبل أن يتزوَّج من فتاة قدِمت مع أسرتها في هجرة مسلمي بورما الثانية، والتي اضطرّ فيها البرماويّة من قطع كل هذه المسافات الشاسعة سيرًا على الأقدام مرورًا باليمن إلى مكّة، ليُنتج نظام الدين وزوجته البرماويّة الشابّة التي تصغره ربما بخمسة عشر عامًا أو أكثر أسرة كبيرة من ثمانية أبناء، ترتيب المطوِّع عبد الرحمن البرماويّ بينهم هو الثالث بعد بنتين متزوِّجتين..

لا يرتاح سامي لتحليل عبد الرحمن لأسباب اضطهاد الكهنة البوذيّين ببورما لمسلمي راخين، إنَّ تحليل عبد الرحمن ينسف النظريّة التي توصَّل إليها سامي منذ فترة، الأمر الذي سيدفعه إلى مزيدٍ من البحث والتحرّي لتعزيز نظريّة التدافع، أو لإعطائها شرحًا جديدًا!

❖❖❖❖❖❖❖

يجد سامي إشكاليّة في تحضير وجبات الطعام، لا سيّما وجبة الغداء التي تحتاج إلى كثيرٍ من التجهيز، لا تسعفه مهاراته في الطبخ، ولا ظروف العمل، ولا وضعيّة

المطبخ المشترك بينه وبين محيي الدين الهندي، على إعداد تلك الوجبة.. تنتشر العديد من مطاعم الأرز البخاريّ مع الدجاج المشويّ داخل الشوّاية، في حيّ النزهة، وفي ساحة إسلام في الجهة المقابلة لمكتب الشركة حيث يعمل ويقيم، يمكنه الحصول على وجبة مكوَّنة من نصف دجاجة وكميّة وفيرة من الأرز وبعض السَلطة الحارّة، وقطعتين من البصل وبعض أعواد الجرجير الأخضر مقابل ثمانية ريالات، وهو مبلغ في المتناول بالنسبة له.. ستظلّ المشكلة هي مسألة التكرار الروتينيّ لنوعية الطعام لكلّ أيّام الأسبوع تقريبًا، حتّى يكتشف أنَّ أوّل طريق أُمّ القرى يوجد به عدد رائع ومتنوّع من المطاعم الفاخرة، كلّ ما عليه أن يقطع طريق جدَّة القديم - شارع حسين عرب- في عكس اتّجاه الحرم، حتّى إشارة تقاطع شارع عبد الله عُريف الشهير بشارع الستِّين، ثمّ يقطع شارع الستِّين كلّه ليجد نفسه في أوّل طريق أُمّ القرى.. كانت هذه في الحقيقة مسافة طويلة سيرًا على الأقدام، فهي ربما تتجاوز كيلو مترين، واستقلال سيّارة أجرة ستكلِّفه كثيرًا، لكنَّه سرعان ما اكتشف طريقًا آخر مختصرًا،

يمرّ بمحاذاة المسجد الكويتيّ بين الحارات حتّى يجد نفسه خلف مسجد الوِزَّة في أول شارع الستّين من جهة طريق أُمّ القرى، إنَّها مسيرة نحو عشر دقائق تقريبًا، في الذهاب ومثلها في العودة، حيث يمرّ على البنك الهولنديّ، وماكدونالدز، قبل أن يعبر الطريق ليصبح أمام فرُّوج الطازج المشويّ، أو يمشي بضع خطوات ليحصل على وجبة بروست البيك، أو يمضي بضع خطوات أخرى ليصير في محلات عصام للأسماك، حيث يمكنه أن يحصل على نصف كيلو من سمك البلطيّ الطازج مشويًّا بسعر يقترب من سعر دجاجة فرُّوج، أو نصف دجاجة بروست البيك مع البطاطس المقليّة والثوميّة والخبز!

يعلم سامي بالتجربة أنَّ سمك البوري الفاخر يتراوح سعره بين ثماني عشر واثنين وعشرين ريالا للكيلو جرام، بينما يحتفظ سمك الشعور، والذي يُطلق عليه الباعة: بلطي البحر الأحمر، بسعر عشرة ريال للكيلو جرام.. عندما سيزور سوق قوز النكّاسة سيجد أسعار الأسماك أقلّ من ذلك بكثير، سيتورَّط في شراء كميّة من سمك البوري، الذي يطلقون عليه اسم العربي، بربع السعر

الذي يباع به في محلات عصام! لكنَّه سيكتشف لاحقًا أنَّ الذي اشتراه من باعة النكَّاسة سمك تقليد، ليس له من صفات السمك البوري شيئًا إلا الشبه الخارجيّ.. في نفس ذات الزيارة لسوق النكَّاسة سيلحظ أنَّ الباعة البرماويّة والبنغالة يُصدرون أصواتًا تنبيهيّة عالية بلُغة مبهمة غير مفهومة، لا تمضي بعدها عدَّة دقائق حتّى يكون السوق نفسه قد اختفى من الوجود، البضائع المكدَّسة من اللحوم والخضروات والأسماك، تنشقّ الأرض وتبتلعها، كما تبتلع الباعة أنفسهم، ولا يبقى في السوق سوى المشترين فقط! بعد لحظات قصيرة تقتحم عربات البلديّة وجِهات المراقبة على الأسواق الموقع لتجده خاويًا تمامًا إلا من مخلَّفات البضائع، وبعض الصناديق التي عجز أصحابها عن حملها أثناء الفرار المنظَّم المباغت، فتقوم جرَّافات البلديّة برفع تلك المخلَّفات، وتمضي في سبيلها.. وبعد دقائق معدودة تعود الحياة للسوق مرّة أخرى.. كأنَّ أهل النكَّاسة يعيشون في سراديب مخفيّة أسفل الأرض!! هذا المشهد العجيب مع وجبة السمك المغشوش ستُقنع سامي بمقاطعة سوق النكَّاسة نهائيًّا.. حتى عندما يريد الالتقاء بعبد الرحمن، فإمَّا أن يزوره

في نهاية دوامه في محلّ المفاتيح بشارع المنصور، أو يواعده في أيّ مكان آخر بعيدًا عن أجواء قوز النكّاسة!

يعلّق عبد الرحمن مبتسمًا على قرار سامي قائلا:

- ألمْ أقل لك أنَّنا كجالية برماويّة نعيش في مستعمرات؟!

يعترض سامي قائلا:

- حدَّثتني عن مستعمرات فوق الجبل، ولم تذكر لي شيئًا عن سراديب تحت الأرض!

يضحك عبد الرحمن ويقول:

- فوق الجبل أو في الكهوف والشقوق كالجرذان، يبقى الأمر نفسه.

لا يعقّب سامي سوى بهمهمات غامضة لا معنى لها.

٥ – متاعب دُعاء

ككلِّ صباح تخرج دُعاء من منزلها في طريقها إلى مدرسة البنات الإعداديّة التي تعمل بها كمُدرِّسة لمادّة العلوم، لا يمنع خاتم الخِطبة الذي تضعه في بنصر الكفّ اليُمنى، ولا لباسها المحتشم دائمًا، ولا طرحتها التي تغطِّي رأسها، من مضايقات بعض المارّة من الرجال في الطريق، التي تكاد في مرَّات أن تتجاوز حدّ التحرُّش اللفظيّ إلى ما عداه.. حتّى ملاحقة بعض الزملاء في المدرسة لها سواء بنظراتهم المقتحمة، أو بتودُّدهم المفرط الذي تقابله بالتجاهل أحيانًا، وبالصدّ العلنيّ أحيانًا أخرى، لا تكاد تتوقَّف.. لا يريد أحد أن يقتنع بتركِ فتاة مرتبطة بفتى مسافر إلى الخارج في حالها! الزميل أحمد الذي اتّخذ قرارًا من طرفٍ واحد أن يظلّ يلاحقها حتّى توافق على الارتباط به، يَرُدُّ على السيّدة حنان زميلتهما في القسم، عندما تحاول إثناءَهُ عن إلحاحه السمج على لفت انتباه دعاء، فتقول له:

– قلت لك يا أستاذ أحمد عديد المرَّات أنَّ دعاء فتاة متزوِّجة وتحترم غيبة زوجها الذي سافر من أجل

توفير سبل أرقى للحياة لها..

- من فضلكِ يا أستاذة حنان إنَّ دعاء مخطوبة فقط وليست متزوِّجة..

تقاطعه في انزعاج: الفتاة المعقود عليها يا أستاذ امرأة متزوّجة، وليست فتاة مخطوبة!

يقول أحمد بسماجة قد تصل إلى درجة من الوقاحة:

- المهمّ أنَّه لم يَدخُل بها، ولذلك فنحن نطلق عليها آنسة - مدموزيل، مس- لا سيدة أو - مدام، مسز- إذن هي ما زالت على البَرّ وتستطيع أن تفسخ هذا الارتباط متى شاءت..

تنظر إليه حنان طويلا نظرة تملؤها الدهشة والاستنكار، وتضرب كفًّا بكفّ، ثمّ تسأله متجاهلة المغالطات في منطقه المعوَجّ:

- ولماذا كلّ هذا العذاب يا سيّدي؟ الفتيات الجميلات الرقيقات كُثر، فاختر لنفسك فتاة تناسبك وغير مرتبطة بغيرك..

يقول في عناد كأنَّه يتعمَّد إثارة حنقها:

- القلب وما يريد يا أستاذة حنان..

تقاطعه في حزم:

- لقد حذَّرتُك كثيرًا.. هذه فتاة قلبها مسافر مع زوجها وحبيبها، ولا سبيل للوصول إليه، ولن تنال من مطاردتك لها إلا وجع القلب، وصُداع الرأس.

تُقبل دعاء متورِّدة الوجه مجهدة بعد الانتهاء من قيامها بالتدريس في ثلاث حصصٍ متلاحقة بلا فاصل زمنيّ للاستراحة، فيسكت الحديث الدائر عنها بين الزميل والزميلة، يحاول أحمد التودُّد إليها بابتسامة وكلمة مجاملة تمرّ لزجة على عينيها وأذنيها، وتحاول حنان تدارك الموقف، فتطلب منها أن تعاونها في تصحيح بعض كرَّاسات الطالبات، لتقطع الفرصة عن مزيد من محاولات أحمد، ومع ذلك يعلِّق أحمد في برود:

- على الأقلّ انتظري قليلا أستاذة حنان حتّى تستريح الفتاة من عمل نهارٍ شاقّ..

تنظر إليه حنان في حدِّة، بينما تتجاهل دعاء حديثه وتقرِّب مقعدها من زميلتها لتأخذ منها عددًا من الكرَّاسات.. يشعر أحمد بأنَّ الوضع قابل للانفجار في وجهه عند إضافة جملة أخرى، فيخرج من المكتب ممنِّيًا النفس بكسب جولة قادمة!

تلاحقها أُمّها بالقول:

- كلام الناس كثير.. وألسنة الناس لا تعرف الرحمة!

تتساءل دعاء في انزعاج حقيقيّ:

- وعن أيّ شيء يتكلَّم الناس؟

تبدو الحيرة على ملامح وجه الأُمّ وتحرِّك كفها بقلق:

- الناس تتكلَّم وفقط.. دون أن يكون لكلامهم سبب أو منطق واضح..

تشيح دعاء بوجهها وهي تزفر:

- إذا كانوا يتكلَّمون بلا سبب ولا منطق، وهم في كلّ الأحوال، وبمناسبة كلّ المناسبات، سيتكلَّمون حتمًا، فكلامهم يظلّ لغوًا لا قيمة له فلا تشغلي بالكِ به أُمّي.

- العيار الذي لا يُصيب يدوش..

تردّ دعاء ببرود:

- وما المطلوب منِّي أن أفعل لأُخرس ألسنة الناس؟

- والله يا ابنتي لا أعرف.. لكنّنِي قلقة عليكِ..

رغم ضيق دعاء بالموقف كلّه، توقن أنَّ أُمها تتحدَّث معها بعفويّة دون قصد إيذاء مشاعرها، فتتغلَّب على غضبها

المكبوت وتمضي خطوات إليها وتحتضنها وهي تهمس:

- لا تخافي عليّ يا أُمّي.. فوضعي مثل وضع عشرات الآلاف من فتيات مصر المرتبطات بعقد زواج من رجال سافروا للبحث عن لُقمة العيش وتوفير سبل كريمة للحياة.. بعض الذين يتكلَّمون عنَّا يحسدوننا على ما نحن فيه، متمنِّين هذه النعمة لأنفسهنَّ أو لبناتهنَّ..

تستجيب الأُمّ لعاطفة ابنتها وعناقها لها، أكثر من استجابتها لمنطقها في المناقشة.. ترقُّ لها، فتدمع دمعتان ترفع ذراعها المكتنز باللحم، لتمسحهما بطرف كُمّ جلبابها، ثمّ تقول محاولة رسم ابتسامة على شفتيها من خلف قلبها المشغول، كأنَّها تحاول مصالحتها:

- سأُعدُّ لكِ كوبًا من الشاي ريثما يأتي أبوكِ لنتناول الغداء..

تطبع دعاء قُبلة حانية من قلبها هذه المرَّة على رأس والدتها وهي تهتف بها:

- لا تتعبي نفسكِ حبيبتي.. سأبدِّل ملابسي وأستلقي على فراشي قليلا حتّى يصل أبي..

تشمُّ أُمّها رائحةً قويّة، فتهرع إلى المطبخ لتضع الشيَّاطة

أسفل قِدر الأُرز، وهي تتمتم بكلماتٍ كثيرة مبهمة.. تبتسم دعاء من برطمة أُمّها وهي تتّجه إلى غرفة نومها.

لا تعرف دعاء ماهيَّة كلام الناس، ليس في سلوكها ولا في حياتها كلِّها شيئًا يدعو الناس لذكرها بسوء، تستدرك ولا حتّى بخير، ترى في نفسها إنسانة عاديّة جدًّا، لا تتميَّز بشيء، ولا يميِّزها شيء.. يقول عنها البعض أنَّها خلوقة، بالنسبة إليها فإنَّ المجتمع يعجُّ بالخلوقين والخلوقات، كما يعجُّ كذلك بالفاسدين والمفسدين.. ويراها البعض حسَّاسةً ورومانسيّة، وهي تؤمن حقًّا بأنَّها رومانسيّة، دون أن تعرف هل تضع هذه الصفة اللصيقة بها في خانة الصفات الحسنة، أم السيّئة؟!

هناك آخرون وأخريات يرونها متعجرفة لا تتباسط معهم وتعيش في برج عاجيّ.. وسواء إن كانت حسَّاسة، أو متعجرفة، فإنَّها ترى نفسها لم تغادر مرحلة الوسط بين الناس، فلا هي قدِّيسة تسلك سلوك القدِّيسات، ولا هي أميرة تتعامل مع الناس على أنَّها من دمٍ آخر غير دمائهم، فلماذا يشغلون أنفسهم بها مدحًا أو ذمًّا من

حيث الأساس؟!

تتقلَّب على الفِراش يجافيها النوم.. هل حقًّا هي رومانسيّة تؤمن كثيرًا بالحُبّ، في مجتمع تقريبًا لا يكاد يؤمن بالحُبّ؟ إنَّ المجتمع لا يتقبَّل فكرة الحُبّ إلا في الروايات الأدبيّة والأفلام السينمائيّة، والمسلسلات التلفزيونيّة، يؤمن به في تلك الفنون ربما على سبيل التعويض النفسيّ، أو ربما على أساس أنَّه أسطورة غير واقعيّة لا يمكن أن تعيش إلا بين دفتي كتاب، أو داخل شريط فيلم سينمائيّ!! لم تسمع أُمّها تتحدَّث مرّة واحدة عن الحُبّ، ولا سمعت خالاتها، أو عمَّاتها!! كأنَّ الحُبّ في حياتنا خادش للحياء، تسمعهنَّ يتحدَّثنَ عن العِشرة ربّما، عن الاعتياد، جائز، عن الأمان النفسيّ في وجود شريك الحياة يحدث ولو نادرًا، أمَّا عن الحُبّ فلا، لا يمارس الحُبّ في مجتمعنا إلا المراهقون والمراهقات، وغالبًا ما يشعرون به يكون مجرَّد أوهام يمليها الشوق إلى الطرف الآخر.. ثمّ ينضج الناس، فيكتفون بمشاهدة قصص الحُبّ في الأفلام كما يفعل الأولاد، يظلُّون يلعبون كرة القدم في الشوارع والأزقّة، يلعبونها بكلّ ما كان له شكل مكوَّر، حتّى يركلون حجارة الطريق، فإذا

بلغوا سنّ النُضج، اعتزلوا اللَّعب واكتفوا بمتابعة مباريات الكُرة في التلفزيون، أو في الملاعب إن كانوا من أصحاب الحظوظ السعيدة.. هكذا اعتزل الناضجون في مجتمعاتنا الحُبّ!!

تتساءل دعاء هل هي فعلا ضحيّة قراءتها للروايات الرومانسيّة التي أثَّرت فيها إلى هذا الحدّ؟

تظلَّ الروايات الرومانسيّة تُلهب الخيال وتغذِّي الفانتازم fantasme، وفجأة يتوقَّف كلّ شيء، حين نصطدم بواقع الحياة، تدخل المشاعر والأحاسيس مُجمِّد الثلج أو الفريزر وتتجمَّد أو تتبلَّد، لا فرق، المهم أنَّها تموت لنبقى أحياء بلا حياة، ولا نبض، ولا مشاعر، ولكن أحياء نأكل ونشرب وننام ونتكاثر ونعمل ونتصارع، كلّ شيء يمضي وِفق الرغبة الآنيّة المؤقَّتة، تتساءل:

لماذا يأكل الحمار؟ لماذا ينام الحمار؟ لماذا يتزاوج الحمار؟ لماذ يرفُص الحمار من يظنّ أنَّه يحاول أن يؤذيه؟ ثمَّة مكان يبقى في النفس للمشاعر السلبيّة فقط.. الحقد والغيرة والحسد والرغبة في الإيذاء، والشماتة في الغير، والشعور بالإثارة عند وقوع المصائب للآخرين، أمَّا أحاسيس الحُبّ والأُلفة والأُنس والسعادة والتعاطف

والمودَّة، فكلها مجمَّدة وغير قادرة على الذوبان لتنبض من جديد بالحياة!!

لو سألوها ذلك السؤال الفلسفيّ القديم عن الفرق بين الإنسان والحيوان، ستجيب أنَّ الإنسان كائنٌ عاطفيّ، الحيوان تحرِّكه الغريزة، يُشبعها فينتشي، الإنسان ينتشي بالعاطفة وحدها وإلا صار حيوانًا ناطقًا!!

أم أنَّها لم تنضج فكريًّا وتتَّزن عاطفيًّا بعد لتدرك أنَّ الحُبّ لا وجود له في عالمنا؟

على كلّ الأحوال إنَّها ما زالت صغيرة وغير ناضجة إلى الدرجة التي تجعلها تعتقد أنَّه لا حياة حقيقيّة بغير حُبّ، وتعتقد أنَّها لا يمكن أن تمنح نفسها لرجل لا تحبّه ويحبّها، ولو تحت أيّ مسمَّى آخر غير الحُبّ، لن تفعل بالتأكيد، فهذا أمرٌ مقزِّزٌ جدًّا، بل هو في الحقيقة مقرف وسخيف.. ولكن ما عليها أن تفعل شيئًا رغم إرادتها، هي تحبّ سامي فعلا، وتؤمن تمامًا أنَّه يحبّها، أو هو متيَّمٌ بها..

❖❖❖❖❖❖❖

خطابات دعاء إلى سامي تحمل بين السطور وخلف الكلمات ضيقًا وتبرُّمًا وانزعاجًا، لا تصرِّح دعاء

بما تعانيه من ضغوط ومضايقات، لكنَّ سامي يشعر بأزمتها، وهو يعرف أنَّ طريق الغُربة والفِراق ما زال في بدايته، وأنَّ ما يعانيانه سويًّا من آلام وحرمان، لا يشذّ عمَّا توقَّعاه إجمالا، ورضيا به في سبيل وضعٍ مستقبليٍّ أفضل.. هو الآخر يشعر بالضيق والكبت والحرمان ربّما أكثر ممَّا تشعر به حبيبته، أو هو يظنّ ذلك، لكن عليهما أن يتحمَّلا ويتجمَّلا حتّى تهون الصعاب.. على كلّ حال وجب عليه في ليلة اليوم الذي وصله منها خطابها المنزعج أن يهاتفها، لعلّ تبادل سماع الأصوات وحده يطفئ شيئًا يسيرًا من لهيب مشاعرهما..

هواتف العُملة تنتشر في كلّ أحياء مكَّة، لكنَّ العُملة المعدنيّة نفسها التي تحتاجها تلك الهواتف غير متوفِّرة لدى سامي الآن، وهي لا تُستبدل إلا في أكشاك قريبة من الحرم في الشاميّة بالقرب من باب الفتح، أو في العزيزيّة- الششَّة- أمام سوبر ماركت (بن داود).. لا يمكن الوصول إلى حيّ العزيزيّة من محلّ إقامة سامي إلا بسيَّارة أجرة، والميزانيّة لا تحتمل رفاهية أُجرة التاكسي مع تكلفة المكالمة الهاتفيّة، فليذهب سيرًا على الأقدام إلى حيّ الشاميّة بالقرب من الحرم، حيث يصل

منهكًا يتصبَّب منه العرق في طقسٍ مرتفع الرطوبة على غير عادته بمكَّة المكرَّمة! ليجد صفّ انتظار طويل من مختلف الجنسيّات أمام كُشك استبدال العُملة الورقيّة بقيمتها من العُملة المعدنيّة، والكلّ يهتف في الكلّ: أمسك سيرة، أي قف في الصفّ.. يزداد اختناق سامي، تتضافر عليه عوامل الضيق من خطاب دعاء إلى حالة الطقس، مع الإجهاد الشديد بعد سير مسافة أكثر من ثلاثة كيلو مترات في أعقاب يوم عملٍ شاقّ.. ليصل إلى الهاتف أخيرًا بعد الحصول على عشرين ريالا معدنيًّا بدلا من عشرة فيما يشبه الكرامة أن يوافق الموظّف الشاب على منحه كيسين من العملات المعدنيّة دفعة واحدة، بدلا من أن يضطرّ إلى مسك سيرة من جديد.. فعشرون ريالا تكفي لمكالمة من خمس دقائق، لعلَّها تثلج صدره وصدر حبيبته..

– ألو.. السلام عليكم

يأتيه صوت أبي دعاء على الطرف الآخر على بعد ألفي ميل، يضطرّ سامي إلى ردّ التحيّات والسؤال عن صحّة الوالد والأسرة الكريمة، ويتشبَّث الأب بسمَّاعة الهاتف ليسأل مطوَّلا عن الأحوال والصحّة والعمل والظروف

والجوّ.. تنقضي اللحظات، وآلة العُملة في الهاتف تبتلع العملات الموضوعة صفًّا متتاليًا أمام حافّتها قبل أن ينقطع الخطّ.. يتعجَّل سامي، رغم حرج الموقف عمَّه، ليعطي سماعة الهاتف لابنته دعاء، لكنَّ الرجل يقول له بضميرٍ مستريح:

- معك الحاجَّة تريد أن تطمئنّ على أحوالك.

يزفر سامي في صدره وهو يرى العُملات تكاد تتلاشى داخل صندوق العملة بالهاتف.. يجيب بالكاد على سؤالين لحماته، ثُمَّ يسمع صوت الآلة:

- توت، توت، توت..

نفد كيسي العُملة المعدنيّة التي حصل عليهما بشبه معجزة، دون أن تتحقَّق معجزة محادثة زوجته!

سيقف لا محالة في آخر الصفّ أمام كشك استبدال العُملة من جديد للحصول على كيس عُملات معدنيّة للمرّة الثانية، يكاد يختنق، ويغصّ حلقة بضيقه، إنَّ السيرة هذه المرّة لن تنتهي ربّما قبل منتصف الليل، يظهر له هذا الفتى الدكروني (الأفريقيّ) الأسود ملوِّحًا بكيس العُملة المعدنيّة في يده، هامسًا في أذنه بصوت خشن:

- تشتري؟

يُجيب بلهفة:

- نعم..

يناوله ورقة بعشرين ريالا ثمنًا لكيسين.. يعيد له الفتى ورقته النقديّة وهو يقول ببرود:

- باقي دو ريال (ريالين).

تبدو على ملامح سامي أمارات عدم الفهم، يضيف الفتى:

- الكيس باحداش ريال.
- هذا رِبا يا أخي.
- إذا ما تبغى يا مصري سأبيع لغيرك.
- لكن كيف تأخذ إحدى عشر مقابل عشرة؟ لا يجوز..

يقاطعه الفتى بشدة:

- لا تسوِّي لي فيها مطوَّع.. الريال الزائد ثمن وقفتي في السيرة.. تبغى ولا ما تبغى؟

يُخرج سامي ريالين إضافيّين ويضعهما مع ورقة العشرين ريالا في كفّ الفتى، ويستلم العملة، وهو يجري إلى أحد الهواتف الفارغة من المتحدِّثين، ليجده

مُعطَّلا، يذهب إلى غيره يتحدَّث من خلاله شابّ باكستانيّ يثرثر، من الواضح أنَّه يهاتف شخصًا داخل المملكة، لأنَّ دقائق المكالمة طالت، والعُملات القليلة التي أمام فوّهة الصندوق لا تتحرَّك إلا ببطء.. يتلفَّت سامي حواليه، خلف كلّ هاتف صفّ من ثلاثة منتظرين على الأقلّ، ممَّا يجعله يتشبَّث بمكانه خلف الباكستانيّ الذي يثرثر بنزق ويضحك كثيرًا، أخيرًا يلحق الباكستانيّ بعُملة معدنيّة قبل أن تنزلق في فوّهة الحصَّالة ويضع السمَّاعة، ويستدير برعونة ليصطدم بوجه سامي المتلهِّف على الإمساك بسمَّاعة الهاتف، يرصّ عُملاته، ويدقّ قلبه بصوتٍ أعلى من صوت دقَّات الهاتف، وهو يدعو الله خاشعًا أن تجيبه دعاء مباشرةً، أخيرًا أتاه صوتها مخنوقًا مهمومًا ضعيفًا، يقول سامي بعد السلامات:

- أوحشتني جدًّا.. أوحشتني بجنون.. I miss you very much
- حولك ضوضاء شديدة، لا أسمع بوضوح سامي.

تتجاهل تعبيره عن مشاعره، يردّ سامي بغيظ:

- إنَّني أتكلَّم من الشارع، وحول الهاتف مئات البشر

من مختلف الجنسيّات..

- بجواري بابا وماما وإخوتي..

يصله التحذير المبطَّن، يصمت لحظة، وفوّهة صندوق العُملة تلتهم الريالات المعدنيّة التهامًا، في حال الحديث أو الصمت قلب الآلة سواء، يعمل بنفس الكفاءة والوحشيّة.. تُنقذ الموقف بسؤال:

- كيف حال العمل؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟
- لا أستطيع العيش بدونكِ حبيبتي..
- اهتمّ بنفسك سامي وخُذ بالك من طعامك وشرابك..
- كيف حال عملك في المدرسة؟
- كلّ شيء تمام.. كلّنا بخير.. لا تتأخّر في كتابة الخطابات..

يرتفع صوته منفعلا:

- الخطابات التي تصلني منكِ قليلة ج...

تضيع باقي حروفه في صوت الآلة:

- توت.. توت.. توت..

يضع سمَّاعة الهاتف في عنف، ويمشي مبتعدًا يضرب الأرض بقدمه، كطفلٍ صغير حُرم من لُعبته المفضَّلة..

ينظر في ساعة معصمه في تبرُّم، يجدها تجاوزت موعد عمل حافلات النقل الجماعيّ، سيعود كلّ هذه المسافة سيرًا من جديد.. إنَّه مُنهك وحزين، لكنَّه لا يملك رفاهية العودة بسيّارة أجرة.. هل عاقبه الله بتلك المكالمة السخيفة التي لمْ تزدْ قلبه إلا همًّا على همّ بسبب قبوله استبدال النقود الورقيّة بالرِبا؟! الفتى الأفريقيّ أخذ الريالات الزيادة مقابل وقته وجهده! سيسأل إمام المسجد في أقرب فرصة.. ربّما سينسى هذا السؤال أيضًا في زحمة العمل والحياة، كما ينسى أسئلة أخرى كثيرة يحتاج إجابتها من أئمّة المساجد!

لم يكن سامي يقرأ الغيب، ليعلم أنَّه في غضون وقت قريب، سيصبح في كفِّ كل إنسان على وجه الأرض هاتفًا، وأنَّه سيتحدَّث مع شخص في آخر نقطة من بقاع الأرض، ويرى كلٌّ منهما الآخر على الهواء مباشرة!

❖❖❖❖❖❖

تشعر دعاء بالشوق الشديد لسامي، فرِحة هي لسماع صوته، تمنَّت لو أنَّ المكالمة الهاتفيّة طالت أكثر من ذلك.. لا تتَّذكَّر شيئًا من تفاصيل المكالمة، كان هدفها فقط أن تسمع صوته.. ربّما كان صوته متعبًا، أو

لعلَّه ضجرٌ، يبدو أنَّه يُجهد نفسه كثيرًا في العمل.. تتَذكَّر أنَّه قال لها:

I miss you so much

وأنَّ دقَّات قلبها أجابته:

So I do.

صحيح أنَّها لم تنطق بها.. لكنَّه بالتأكيد يعلم كلّ شيء.. تفتح خزانة ملابسها تبحث عن مخبأ أسفل أشيائها الخاصة.. تُخرج قنِّينة صغيرة، ترفع غطاءها، تقرِّبها من أنفها وتستنشق بقوّة، دون أن تضغط على بخَّاخ القنِّينة، تشعر بالانتشاء، تغلق القنِّينة، وتعيدها إلى مخبئها بحرص، تُغلق الخزانة بإهمال وتدور حول نفسها دورات رشيقة لراقصة باليه، ثمّ تنكفئ على فِراشها، تحتضن وِسادتها وتظلّ تفكِّر في كلمات سامي، لا تعرف أنَّها استغرقت في النوم، وأنَّها كانت تحلم أنَّها بين أحضانه إلا عندما جاءها صوت أُمّها يوقظها كي لا تتأخّر عن موعد المدرسة، تنهض خفيفة الروح، كأنَّ ما رأته في الحلم، حقيقة واقعة في حياتها.. لن تعبأ اليوم بمضايقات ووقاحة نظرات الرجال، ولا بسماجة زميلها أحمد!

٦ – أزمة البرماوي

لمْ ينسَ سامي قصّة المطوِّع عبد الرحمن البرماوي ووالده نظام الدين، ربما شغلته عنها بعض الشواغل منذ غادر قوز النكّاسة آخر مرَّة مقرِّرًا اللا عودة، لكنَّه عاد يفكِّر في كلّ ما سمعه من عبد الرحمن عن هجرات أهله المتتالية، وما تعرَّضوا له من إيذاءٍ وتشريدٍ وقمع، يلجأ سامي إلى صديقه ومستشاره العِلميّ والثقافيّ محرِّك البحث (google) سيبدأ بحثه أوّلا بتوثيق رواية صديقه المطوِّع، كما حاول سابقًا مع رواية صديقه محيي الدين الهنديّ عن الملك شيرومان بيرومال، حتّى وصل إلى توثيقٍ ما للقصّة!

سيعرف سامي أنَّ الإسلام انتشر في إقليم أراكان في أواخر القرن الثاني الهجريّ، أو القرن السابع الميلاديّ في عصر خلافة هارون الرشيد، على أيدي التجَّار المسلمين الذين وصلوا إلى هذه البقاع وأثَّروا بأخلاقهم ومعاملاتهم في أهل أراكان.. يتحدَّثون عن قصّة أسطول تُجاريّ صغير لسفن التُجَّار العرب تحطَّم نتيجة

الاصطدام بصخور بحريّة بالقرب من جُزر رحمبري وشدوبا، وهما بمثابة الميناء البحريّ لأراكان، فلجأ الناجون من التجَّار العرب المسلمين إلى قُرى الإقليم، وبعضهم استوطنوا تلك المنطقة وتزوَّجوا من نسائها، فكان هذا سببًا لاختلاط الجنس العربيّ بالبنغاليّ بأهل أراكان، وانتشر الإسلام وشيَّد المسلمون المساجد الأثريّة البديعة كمسجد "بدر مقام"، واستقرّ المسلمون بأراكان وتمدَّدوا أكثر في بورما تحت قيادة ملوكهم الذين تأثَّروا باللُغة الفارسيّة وأطلقوا على أنفسهم لقب الشاه، كسُليمان شاه، وزبوك شاه، وغيرهما. ظلَّ هذا الوضع حتّى عام ١٨٨٤م عندما احتلّ ملك بوذيّ إقليم أراكان وضمَّه إلى اتّحاد بورما، ومن ثَمَّ عمل متطرفو البوذيّين بدعم روحيّ من بعض الرُهبان المتطرَّفين على تطهير بورما عرقيًّا من الروهينجيا المسلمين، لتصبح بورما خالية من غير البوذيّين، ولذلك اعتبرت الحكومات المتعاقبة الروهينجيا لاجئين من جنس بنغاليّ وليسوا مواطنين، ونزعوا عنهم الجنسيّة وحقوق المواطنة، ممّا أدَّى إلى زيادة الانتهاكات في حقّهم بقصد تهجيرهم القصريّ الجماعيّ خارج الإقليم تمامًا، تحت شعار بورما

للبورميّين!!

تصدم تلك الوقائع سامي صدمة كبيرة، فلم يكن يتخيَّل أن يصل التطرُّف والعنف البوذيّ إلى هذا الحدّ، لا سيّما أنَّه قرأ أنَّ تعاليم البوذيّة متسامحة كثيرًا، وأنَّ انتشار البوذيّة في مناطق من آسيا تمَّ عن طريق معاملات البوذيّين التي تتَّسم باللا عنف، ولبوذا وصايا تتناقلها أجيال البوذيّة تقول:

لا تقض على حياة حيٍّ، لا تسرق ولا تغتصب، لا تكذب، لا تناول مُسكِراً، لا تزن، لا تأكل طعامًا نضج في غير أوانه، لا ترقص ولا تحضر مرقصًا ولا حفل غناء، لا تتَّخذ طبيبًا، لا تقتنِ فراشًا وثيرًا، لا تأخذ ذهبًا ولا فضّة.

ويستدّل على ذلك بأنَّ دولا بوذيّة كثيرة مثل اليابان وتايلاند لا تُعادي الأقلِّيّات، بينما تنفرد ميانمار (بورما سابقًا)، وسريلانكا (سيلان سابقًا) باضطهاد المسلمين!

لا يحلّ لغز التناقض بين التعاليم البوذيّة وبين الممارسات العدائيّة العنيفة في بورما وسريلانكا في عقل سامي إلا مبدأ التطرُّف، فهناك راهب يُدعى (آشين

ويراتو) يصف نفسه بأنَّه «بن لادن البورميّ» ويرى أنَّ الاتّفاق مع جماعة القوّة البوذيّة السريلانكيّة خطوة أولى في تحالف واسع ضدّ التحوُّلات عن العقيدة بيد مسلمين في المنطقة!

من هنا ينشأ القمع، من التطرُّف لا من التعاليم!!

سيبحث سامي مُطوَّلا عن صديقه عبد الرحمن المطوِّع البرماوي ليخبره بما حصل عليه من معلومات بخصوص الروهينجيا، بالتأكيد إنَّ عبد الرحمن الذي لا يتعامل مع الكمبيوتر، ولا يعرف كيف يحصل على المعلومات من الإنترنت، ستسعده بشدَّة تلك الحقائق عن أهله وقومه. يكتشف سامي اختفاء عبد الرحمن، محلّ المفاتيح بشارع المنصور مغلق في كلّ مرّة يذهب إليه!! يسأل عنه الحلاق الهنديّ في المحل المتاخم له، يهزُّ له الهنديّ رأسه الهزّة الهنديّة الشهيرة، ويجيب:

- ما في مَعلُوم..

يحاول سامي مواصلة الحديث، يقاطعه الهنديّ:

- إيش في كلام؟ أنا ما في معلوم..

يشكره سامي في حرج ويبحث عمَّن يسأله، يبعد محلّ شاورما وعصيرات جُحا عدَّة خطوات عن محلّ المفاتيح،

يقرِّر أن يسأل العامل البنغاليّ الواقف إلى طاسة قلي الطعميّة بمحل عصيرات جُحا، يجيب البنغاليّ:

– المحلّ داك مِسكَّر من يوم الرَبوع..

اليوم هو يوم الثلاثاء، معنى ذلك أنَّ محل المفاتيح ظلَّ مغلقًا مدَّة أسبوع كامل، دون أن يعرف الجيران سبب ذلك.. دلَّه عامل الطعميّة البنغاليّ على سؤال إمام مسجد ابن حسن، فقد كان يرى البرماويّ المطوِّع كثيرًا ما يقف في صحبته عقب الصلوات.. لن تسعف الظروف سامي ليلتقي بإمام جامع ابن حسن، كلّ الذي سيستفيده من زياراته المتكرِّرة أنَّه سيكتشف بجوار الجامع من جهة الزهراء بعض مطابخ دجاج المندي، وسيصبح زبونًا معتادًا عليها، قبل أن يكتشف أنَّ مطابخ المندي الأصليّة تنتشر في منطقة جبل النور!

ستمرّ عدَّة أيّام أخرى، كلّ يوم يمرّ سامي على محلّ المفاتيح مرَّة أو مرَّتين، ولكنَّ المحلّ سيظلّ مغلقًا!! الأمر الذي يثير ريبة سامي وقلقه.. يدفعه القلق على صديقه إلى نقض قراره المبرم بشأن زيارة قوز النكَّاسة، سيضطر إلى زيارة السوق مجدَّدًا، وسيذهب إلى الحارة التي يعرف أنَّ عبد الرحمن يسكن بها، لم يكن عرف في أيّ البيوت

الضيّقة المتلاصقة يسكن على وجه التحديد، لكنَّه يعرف الحارة، التقاه عند البقالة الصغيرة في أوّل الحارة، واقفاً مع البقَّال البورميّ أو البنغاليّ، وجذبه من يده وعرَّفه إليه قائلا: صديقي المصريّ سيّد سامي.. يتذكَّر أنَّه أطلق على البقَّال اسم ميزان.. وعندما دلفا إلى الحارة ألقى التحية على الحلاق والخيَّاط وبائع الأحذية الرخيصة، كلّ منهم على حدة ردّ التحيّة بحفاوة مردّدًا كلمة (المطوِّع).. سيسأل سامي البقَّال ميزان عن المطوِّع عبد الرحمن البرماوي، سيجيبه وفي عينيه نظرات تائهة: مادري..

- خَويَّك المطوِّع عبد الرحمن.
- جُلت لك مادري يا مصري، وإيش تِبغى؟

يهمّ سامي بمجادلته أو الشرح له، يُعرض عنه ميزان ويتشاغل بتلبية طلبات صبيَّة صغيرة أتت لشراء بعض اللوازم.. يسقط في يد سامي، يمضي مدهوشًا، يمرّ في طريقه على الحلاق والخيَّاط وبائع الأحذية الرخيصة، كلهم لا يعرفون المطوِّع عبد الرحمن.. تتنوَّع الردود بين: مادري، أو: إيش في كلام أنا ما في معلوم.. تظلّ الإجابة واحدة أنَّهم لا يعرفون شيئًا عن المطوِّع، أو لا

يعرفون المطوِّع نفسه!!

قبل أن يخرج من الحارة الضيّقة يائسًا ومتعجّبًا وعاجزًا، لحق به فتى في مثل عُمر عبد الرحمن، ولكنَّه نحيف طويل القامة، تميل بشرته لسمرة خفيفة، ملامحه عمومًا تجمع بين الملامح العربيّة والملامح الهنديّة، تذكَّر أنَّه لمحه مع عبد الرحمن من قبل، قال الفتى معرِّفًا بنفسه: أخوك فيصل.. هل أنت المصريّ صديق خوينا عبد الرحمن؟

أومأ سامي مرحِّبًا بفيصل.. أخذ فيصل سامي من كفِّه وظلّ يمشي بجواره صامتًا حتّى خرجا من قوز النكّاسة في اتجاه المسفلة، نظر حوله مرَّتين كأنَّه يتأكَّد أنَّهما غير متبوعين، ثمّ أخبره قصّة مفادها أنَّ شقيقة عبد الرحمن التي تصغره في العُمر هربت مع فتى برماويّ من عيال الحارة، بعدما اكتشف الأهل علاقتهما معًا، هذا الأمر أصاب عبد الرحمن بخيبة أمل كبيرة، في البداية جدَّت العائلة في البحث عن الهاربيْن، حتّى استيأسوا من الوصول إليهما، وغلب عبد الرحمن الحزن الشديد معتبرًا أنَّ عارًا أصاب عائلته لا يمكن التعايش معه، ومن ثمَّ قرَّر هو أيضًا مغادرة الحارة، وترك الإقامة بمكَّة كلّها

وذهب للعيش مع أناس من جماعته في جدَّة.. أصاب الحزن والذهول سامي، ولم يجد ما يعقِّب به على تلك القصّة غير ترديد قوله: لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

شرح فيصل الأمر بقوله: نحن يا مصري كما ترى نعيش فيما يشبه مستعمرة من البورماويّة والبنغالة في سفوح الجبل وعلى قمَّته وفي شقوقه.. الخدمات عندنا ضعيفة.. الحياة فقيرة جدًّا.. بل تستطيع أن تقول حقيرة.. التعليم ضعيف، والثقافة منعدمة.. تنتشر بين الوِرعان - يقصد الشباب والفتيان- آفات خُلقيّة وعادات ضارّة مَرَّة (جدًّا).. ومن المعتاد أن تحدث مثل هذه الحوادث من وقتٍ لآخر!! ماذا تنتظر من مئات آلاف من البشر يعيشون لاجئين في شقوق الجبال؟!

أصاب سامي وجوم، لا يجد ما يعبِّر به عن مدى ألمه ورثائه، كان من الواضح له مستوى ثقافة فيصل، وأنَّه تقريبًا يتحدَّث بنفس منطق صديقه الهارب من الفضيحة عبد الرحمن.. بعد فترة أضاف فيصل في تأمُّل كأنَّه يُحدِّث نفسه: لولا القرآن الكريم وإقبال البورماويّة على حِفظه وترتيله وعنايتهم به عناية

كبيرة، لتحوَّلت الجالية بالكامل إلى قُطَّاع طرق.. لكنَّنا بفضل العناية بالقرآن نملك أكثر من ثلاثة آلاف حافظ للقرآن يؤمُّون مساجد المملكة في صلاة قيام شهر رمضان، كما أنَّ من بيننا أشهر شيوخ قراءة القرآن الكريم بأصواتهم العذبة التي يصفونها بمزامير البرماويّة كالشيخ محمد أيوب إمام الحرم النبويّ الشريف، كما تمتدّ شهرة الشيخ عبد الولي الأركاني والشيخ راشد الأركاني إلى عموم دول الخليج!!

ولم يجد أيضًا سامي ما يعقِّب به، كانا قد وصلا في مسيرهما إلى القُرب من الحرم، فقال كأنَّه يطيِّب خاطر محدِّثه: وكفى بربّ القرآن حافظًا..

ثمَّ أراد الاستئذان من فيصل للانصراف شاكرًا له أنَّه لم يتركه في حيرته طويلا، ظلَّ فيصل محتفظًا بكفّ سامي بكفِّه، كأنَّه يتشبَّث بصداقته، أو كأنَّه يعلن امتنانه له عن وفائه لصديقهما الغائب عبد الرحمن.

رغم دفء هذه المشاعر فسامي كان بحاجة ماسّة أن يخلو بربِّه ساعة في صحن الكعبة، لعلَّه يتخفَّف من وقع صدمة المأساة التي حاقت بصديقه البرماويّ، فاستأذن بلباقة من فيصل، الذي ألحَّ على تكرار الزيارة والسؤال،

فوعده سامي وهو يعرف أنَّه غير صادق تمامًا في هذا الوعد، ثمّ ودَّعه متعجِّلا الفرار من نفسه إلى أحضان الكعبة!!

٧ – الصدام الأول

هل سينجح سامي في إثبات ذاته وجدارته في فرع الشركة بمكّة المكرَّمة؟ كانت فكرته عند تسلُّم مهامّ عمله بالفرع أنَّه سيصبح بموجب تلك المهامّ مهيمنًا على الجانب الإداريّ في الفرع، وسيكون تابعًا مباشرةً للقسم الإداريّ بالمقرّ الرئيسيّ للشركة في جدَّة، ولن تكون له علاقة بالجانب الفنِّيّ الهندسيّ المسؤول عن إدارة وتنفيذ مشروعات الفرع، وبالتالي فلن يخضع بشكل حادّ لسلطات المهندس متولي، الذي يجب عليه أن يتفرَّغ للإشراف والإدارة الفنّيّة بالمشروعات، لكنَّه فوجئ بتضارب الاختصصات في كلّ شيء تقريبًا! تدخُّلات المتولي في صميم تخصُّصه المحاسبيّ والإداريّ لا تنقطع، وتوجيهاته بخصوص ما يرسمه من بروتوكول خاصّ للتعامل داخل الفرع ولتعامل الفرع نفسه مع المقرّ الرئيسيّ، بفرض سرّيّةٍ ما، أو تعتيمٍ ما على ما يجري داخل الفرع الذي يرأسه لا تتوقَّف! سامي لا يرى داعيًا لهذا التعتيم، فالحقيقة أنَّ الفرع يخضع محاسبيًّا

لسيطرة قسم الحسابات الرئيسيّ، وهو الذي يعتمد كافَّة المعاملات الماليّة للفرع سواء الخاصّة بالعملاء - ممولِّي وأصحاب المشروعات- أو الخاصّة بنظام التعاقد مع مورّدي الخامات، ومع مقاولي الباطن، بل ويضطرّ المقرّ الرئيسيّ للشركة إلى فرض بعض المورِّدين الكبار لبعض الخامات الأساسيّة للمشروعات، لاتّفاقات ثنائيّة تخضع لها الشركة الأُمّ مع هؤلاء التجَّار الكبار.. وفي الجانب الفنِّيّ فإنَّ المهندس سعد بهلول المدير العام التنفيذيّ للشركة، والشريك الرئيسيّ في رأس المال، يقوم بجولات شهريّة أو نصف شهريّة لمواقع المشروعات بالفرع، ويتابع بعينيه حجم الإنجاز المتحقِّق على أرض الواقع، ومدى مطابقته لمواصفات التعاقد، كما أنَّ كلا من ملاك المشروعات، والمكاتب الهندسيّة الاستشاريّة المشرفة على تنفيذ تلك المشروعات يرسلون نسخًا من مراسلاتهم الدوريّة وملاحظاتهم الفنّيّة والماليّة مباشرةً إلى المقرّ الرئيسيّ، يتساءل سامي أمام كلّ هذه المعطيات: ما الذي يحاول المتولي إذن أن يُخفيه عن رؤسائه بالشركة الأُمّ من جرَّاء هذا التعتيم الخانق والمزعج له وللعاملين معه في الفرع؟ إنَّه يحدّ به من

قدرات معاونيه، ويتدخَّل في تفاصيل هي من صميم وظائفهم المهنيّة التي أُهِّلوا لأدائها أعوامًا عديدة.. ويرهق نفسه كذلك في الغرق في تفاصيل لا يستوعبها كلّ الاستيعاب.. سيدرك سامي لاحقًا أنَّ المتولي لا يؤمن بالتفويض، ولا يرتاح له، إنَّه يريد أن يظلَّ ممسكًا بكلّ خيوط اللُعبة، كما يظلَّ هو ضابط الاتّصال الوحيد والحصريّ بالشركة الأُمّ! يدفع المتولي لهذا السلوك المزعج، إيمانه المستقرّ بأنَّ من طبيعة العاملين الأجانب على مختلف جنسيّاتهم، تربُّصهم المستمرّ بالمديرين والوشاية بهم بالحقّ والباطل لدى رؤسائهم، كما يعتقد أنَّه بذلك يؤمِّن بعض التجاوزات الصغيرة، وبعض المصالح الشخصيّة والماليّة التي تربطه ببعض مقاولي الباطن، أو الهدايا والعطايا التي تستهدفه من المورِّدين والملاك باعتباره ممثّل الشركة الأكثر ظهورًا في الصورة بالنسبة إليهم.. التعتيم يحقِّق مصالح المتولي برغم إرباكاته العديدة لمجريات العمل في الفرع.. هذا الوضع يربك خطط سامي المهنيّة، ويفرض عليه ازدواجيّة محاسبيّة وإداريّة تجعل عمله لا يتمّ في أفضل صورة!

لا يزعج سامي حقيقة كمّ العمل الملقى على عاتقه، فهو متفرِّغ تمامًا لأداء عمله، وهو غير مشغول بأيّ شيء لا داخل وقت الدوام ولا خارجه، لكنَّ الذي يزعجه هو هذا الارتباك والإرباك الذي يمنعه من أن يضع نظامًا إداريًّا يرفع من كفاءة الأداء بالفرع.. نصحه العديدون أن يربط الحمار مكان ما يريد صاحبه، لا يؤمن سامي بتلك النصيحة ويعمل ضدّها على طول الخط! كيف يربط الحمار في المكان الخاطئ، في ميدان عامّ مثلا تجتازه مئات السيّارات بسرعات عالية؟ لو فعل فهو يقتل الحمار، لا يحافظ عليه، فلربّما كان صاحب الحمار أعمى أو سفيهًا، فكيف ينفِّذ أوامره بالحرف الواحد؟! إشكاليّة أخرى تطارد سامي طويلا، هو لا يعمل عند صاحب الحمار، هو يعمل تحت رئاسة المشرف عليه، فصاحب الحلال - المال كما يطلق عليه التُجَّار السعوديون- غائب، فهل يجوز له أن يبدِّد الحمار لصالح المشرف، أو لصالح الشريك الحاضر، دون مراعاة لحقوق الشريك الغائب؟! سامي لن يستطيع ولن يفعل وليكن ما يكون.

لم يُحبّ المتولي سامي، لم يستطع أن يرتاح له الراحة الكاملة التي ينشدها، يراه عنيدًا صلب المراس، كثير الاعتزاز بنفسه، ليست عنده نقاط ضعف يسيطر بها عليه! مستقيم السلوك بشكل حادّ يبعث على التقزُّز!! ليس فيه طمع يروُّده به، أو خبث ولؤم طَبعٍ يلاعبه على أساسه.. دائمًا مستعدّ إلى حرق السُفن وهدم المعبد فوق رؤوس الجميع ورأسه أوّلهم، إنَّه كما قال عنه أبو عصام:

- غشيم ما لوش في المصلحة.
- مش عارف له مسكة..

قالها المتولي في نفسه دون أن ينطق، قال أبو عصام يقترح:

- نترك له فتاتًا نلهيه به.
- ده صنف نمرود لو شمَّ رائحة الفلوس مش حنعرف نلمُّه.
- ألِّلَك أبوه..
- خلِّيه ملهي في أوراقه وفي كمبيوتره وإنترنته.. أنا عارف الصنف ده إزاي أتعامل معاه كويِّس قوي..
- أمرك يا كبير.

رغم هذا التوجُّس الطبيعيّ الذي يسيطر على المتولي تجاه سامي، إلا أنَّه يضطرّ للاعتماد عليه في مواقف كثيرة، ورغم ثقل ظلّه على نفسه فهو يثق في نزاهته، سامي يقدِّس العيش والملح ويحفظ السر، ولا يثرثر بالكلام، إنَّه أفضل من أيّ فرد من شركاء المتولي ممَّن ينعمون بما يلقيه إليهم من نعم، ومع ذلك يتربَّصون به الدوائر، وسامي ذكيّ يعرف حدود نفسه على خلاف هؤلاء الأوغاد الذين يحيطونه، قال له مرَّة على إثر خلاف حادّ في عملٍ من اختصاصه:

- اطمئنّ يا مهندس متولي.. مفيش تضارب بنَّا في الاختصاصات أنا مش ممكن حبقى مهندس وآخد مكانك، ولا حضرتك حتستغنى عن محاسب.. سواء كان أنا أو غيري.. والمحاسب مش ممكن يبقى مدير فرع في شركة مقاولات هندسيّة.. حتّى لو ماكنش بنَّا عيش وملح، إحنا اتعودنا على طريقة شغل بعض وده أحسن من إنّهم يجيبوا لي مدير غير حضرتك ماعرفوش وماعرفش طريقة شغله إيه..

فطن المتولي للتهديد المبطَّن بأنَّ أيّ محاسب تأتي به

الشركة بدلا منه ربّما لا يكون مخلصًا له مثله، ومع ذلك أراحه المنطق.. قالها سامي بوضوح أنَّه لا يطمع في كُرسيّه، ولا يتآمر لوضع غيره على هذا الكُرسيّ، وأخوف ما يخاف المتولي على كُرسيّه، هو طمع السفهاء فيه رغم أنَّهم غير مؤهَّلين بحال لشغله!

لن يحبّ سامي، لكنَّه سيعترف بكفاءته ونزاهته أمام مسؤولي الشركة الأُمّ، وأمام المهندس سعد بهلول شخصيًّا، وعندما تضطرّه الظروف إلى القيام بأجازة إجباريّة إلى مصر.. والمتولي لا يفكِّر في القيام بأجازة اختياريّة مهما أرهقه العمل، فلديه اقتناع راسخ بأنَّ الشركة إذا ملأت الفراغ مكانه بمن ينوب عنه في أجازته، فإنَّ ذلك يعني إيذانًا منها بقرب زوال الكرسيّ من تحت مقعدته! ولولا أنّه مجبر على هذه الأجازة، ما جازف على طلبها والقيام بها.. سيرتِّب المتولي الأمر بحيث لا يحتاج إلى الغياب عن إدارة الفرع أكثر من ثلاثة أسابيع، وسينتدب صديقه المهندس عبد العزيز الذي يعمل في أحد المكاتب الاستشاريّة براتب أعلى من راتبه، ليشرف على بعض الأعمال العاجلة في غيابه، مقنعًا المهندس سعد بأنَّ أهل مكَّة أدرى بشعابها.. يفعل كلّ

هذا حتّى يضمن عدم انتقال أحد مهندسي المقر الرئيسيّ إلى فرع مكّة ولو بصفة مؤقّتة.. لا يريد لأحد من الشركة أن يعسَّ وراءه أو يعبث بملفّاته.. سيقترح على المهندس سعد - في مفاجأة حقيقيّة لسامي- أن يستخلفه على فرع الشركة في غيابه.. سيرحّب مهندس سعد بالاقتراح، فهو يطمئنّ إلى سامي، ويرى له مستقبلا في القسم الإداريّ بالشركة.. لن ينسى المتولي أن يمنَّ على سامي مرَّتين أو ثلاثة باختياره له كمدير فرع بالإنابة.. ليلة السفر سيعقد اجتماعًا في المكتب لكلّ العاملين معه، ويحذِّرهم مشدِّدا على عدم نقل الحديث والقيل والقال إلى الشركة الأُمّ.. يومئ إلى سامي قائلا:

- السيّد سامي هو المسؤول وهو ضابط الاتّصال بالإدارة.. هو وحده من يتّصل بجدَّة.. مش عاوز كل واحد تطلع له مشكلة بسيطة يجري على جدَّة.. فاهمين؟!

ينفرد بسامي ويلحّ على هذه النقطة تحديدًا:

- عاوز كلّ الاتّصالات بالإدارة تكون عن طريقك أنت.. أنا عارف الرجَّالة اللي شغَّالين معي.. كلّ واحد حيحاول يكسب بُنط عند الإدارة.. مهمِّتك

يا مدير إنَّك تعمل كنترول حديدي على الموضوع ده..

يتفهَّم سامي مخاوفه، ويرى تصرّفات الزملاء تلوح في الأفق، فيعده خيرًا.. يبذل سامي جهدًا مضاعفًا للسيطرة على شهوة الزملاء العارمة في التواصل الدائم مع المقرّ الرئيسيّ، ليس عند سامي حسابات خاصّة، ولا مخاوف تفرض التعتيم، لكنّ انفراط العقد والاتّصال المباشر بين كلّ مراقب أو موظّف في الفرع بالإدارة بجدَّة، ليس له سوى مدلول واحد، أنَّه لا توجد إدارة في فرع مكَّة، وسامي ليس حريصًا على استمرار إدارته للفرع ولا استغلال نفوذه الجديد في وضعه المؤقَّت ذاك.. لكنَّه حريص على أن يبقى أداء الفرع متَّزنًا، وحريص كذلك على الأمانة التي قبلها من المتولي، وعليه أن يحافظ على أمانته ولو كان مختلفًا معه تمام الاختلاف في طريقة الإدارة ذاتها!

الجميع سينتظرون متى وكيف ستأتي الضربة التي سيوجّهها سامي لغريمه المتولي!

الذي سيحدث سيفاجئ الجميع، أو يصدمهم!! عندما يتردَّد خالد أكثر من مرَّة على مكتب الفرع مطالبًا

بدفعة من مستحقّاته الماليّة عن مقاولةٍ ما يقوم بتنفيذها في أحد مشروعات الشركة، عادة ما تكون هذه الدفعة في صورة شيك بنكيّ باسمه.. وخالد نفسه رجل مصريّ ربّما كان في بداية الأربعينيّات من عمره، طويل القامة، ربّما كان في نفس طول المتولي، لكنَّه رشيق الجسد في غير نحافة أو ترهُّل، شديد التأنَّق في هندامه، والاعتناء بمظهره، يعطيك انطباعًا عامًّا بأنَّه أحد نجوم الفنّ –جان- ، أسلوبه في الحديث شديد الاحترام، بدا في أول تعامله مع فرع الشركة أنَّه صديق قديم وحميم للمتولي، ظنَّه سامي أحد المهندسين الاستشاريّين، فلم يكن يدخل مكتب المتولي في وجوده إلا ورآه يراجع رسمًا هندسيًّا أو مخطَّط عمل مفرودًا على المكتب، ويتبادل التعليقات مع المتولي حول التصميم بالمصطلحات الإنجليزيّة.. تمخَّض هذا كلّه عن القيام بمقاولة صغيرة لأعمال تركيب نوافذ ألوميتال بإحدى الفيلل من إنشاء الشركة!! لا يثير الأمر دهشة سامي طويلا، فمن المعتاد في أعمال المقاولات أن تستهدف التعامل مع شركة كبرى ولو بعمل بسيط يصبح باكورة أعمالك الكبيرة معها فيما بعد.. راجع سامي

الإدارة بجدَّة بشأن دفعة خالد وألحّ في السؤال بناء على إلحاح خالد عليه، أخبره الأستاذ حامد السودانيّ وهو مدير الحسابات بالشركة، بأنَّه لا يوجد لديهم مستخلص لهذا الشخص! يضع سامي سمَّاعة الهاتف وقلبه يغوص في صدره، يخشى أن يكون قد نسي إرسال مستخلص خالد مع المستخلصات المرسلة إلى المقرّ الرئيسيّ، فعمليّة المراسلات هي مسؤوليّته حصريًّا، لن يصدِّق المتولي عندما يعود أنَّ تأخير دُفعة صديقه خالد نتجت عن سهوٍ، وإنِّما سيعزوها إلى تعمُّدٍ من جانب سامي لإيذائه في صديقه!!

المستخلص قبل إدراجه في حافظة المراسلات إلى المقرّ الرئيسيّ يمرّ بعدَّة مراحل، المرحلة الأولى يرفع مراقب الموقع أو مهندس الموقع - إن وُجِد- كميّة الأعمال المنجزة في المشروع، موقِّعًا عليها إلى سامي، فيقوم سامي بترجمة هذه الكميّات إلى مبالغ استنادًا لعقود الاتّفاق المبرمة بين المقاول والشركة، ويسجِّلها في دفتر المستخلصات باسم المقاول، ويحتسب له الدفعة المستحقَّة، بعد خصم نسبة ١٠٪ ضمان أعمال لا يستلمها المقاول إلا بعد التسليم النهائيّ للمشروع،

وكذلك خصم أيّ سلفيّات أو جزاءات وقّعها مهندس الموقع على المقاول نتيجة تأخير أعمال أو سوء أداء، بعد ذلك يُعرَض المستخلص على المهندس متولي ليوقِّع عليه بعد مراجعة المعلومات الواردة فيه، وبعد توقيع مراقب الموقع، وتوقيع سامي كمحاسب الفرع، بعد ذلك يوضع المستخلص حافظة المراسلات التي سيتمّ تسليمها مع المندوب إلى المقرّ الرئيسيّ لاعتماده محاسبيًّا وفنّيًّا، ثم اعتماد صرف الدفعة المستحقّة.

يجد سامي دفتر المستخلصات الأخير الذي به مستخلص خالد، سيفاجأ بأنَّ المستخلص استوفى كلّ المراحل لكنَّ المتولي لم يوقِّع عليه، وبالتالي فلم يتمّ نزعه من الدفتر ولا إرساله إلى المقرّ الرئيسيّ! وللمتولي في اعتماد وتوقيع المستخلصات نظريّات، أحيانًا يعاقب بعض المقاولين المتمرِّدين عليه بتأخير اعتماد مستخلصاتهم، وفي حالة خالد ربما نسي توقيعه، رغم أنَّ ترتيب ورقة مستخلص خالد جاءت وسط مستخلصات قبله وبعده تمّ اعتمادها!

عندما سيحضر خالد المرّة القادمة إلى المكتب منفعلا يتحدَّث بلهجة مختلفة عن المعتاد، سيجيبه سامي

محاولا التخفيف من حدَّة انفعاله بأنَّه قد حدث خطأ في المستخلص استوجب عدم إرساله إلى جدَّة قبل عودة المتولي من السفر، سيثور خالد ثورة عارمة متّهمًا الإدارة بالمماطلة، فالمتولي أكَّد له قبل سفره بأنَّه أرسل مستخلصه إلى جدَّة، أمام هذه الثورة لن يجد سامي بُدًّا من إخباره بأنَّ المهندس متولي لم يوقِّع المستخلص.. هنا تتحوَّل الثورة العارمة لخالد إلى نوع من هيستيريا، ويبدأ في سبّ المتولي بأفظع الألفاظ، فينهره سامي بشدَّة ثمّ يضطرّ إلى طرده من المكتب.. يأتي محيي الدين مهرولا على صوت صياح سامي، فلم يعتد منه هذا الصياح ولا تلك العصبيّة.. لكنَّه يدفع خالد بهدوء وشبه اعتذار إلى باب المكتب، كأنَّه يؤمِّن سلامته من هياج سامي، ثم ينظر إلى سامي مبهوتًا، كأنَّه يتساءل: ما الذي يحدث للناس عندما يجلسون على كرسيّ الإدارة؟ هل من لوازم المدير أن يكون جهوريّ الصوت يثور لأتفه الأسباب؟!

يقرأ سامي ما يدور في رأس محيي الدين، فيوضِّح له وما زال في سوْرة غضبه:

– الحيوان يسبُّ المتولي بأفظع الشتائم في غيبته،

والرجل على سفر.. كيف لي ألا أردّ غيبته؟!

لا يظنّ محيي الدين أنَّه فهم ما قاله سامي تمامًا، لكنَّه سيُحضر له كوبًا من النسكافيه لتهدئة أعصابه، وسيروي فيما بعد ما حدث وفق فهمه لكلّ من سيزور المكتب لاحقًا.. لماذا يستأسد سامي كلّ هذا الاستئساد في الدفاع عن المتولي في غيابه؟! ثمّ لماذا يخفي هذا الاستئساد ولا يفاخر به حتّى يتمّ نقله للمتولي فيما بعد؟! تظلّ هذه أسئلة حسن السبالّك وأبي عصام وعيسى الحارس وغيرهم من العاملين.. فلا يجدون تفسيرًا!

يرسل رضا مقاسات رخام الدرج الخارجيّ لقصر الدكتور حسن بالعوالي، هذا الرخام الإيطاليّ الفاخر توفِّره الشركة بجدَّة، لارتفاع تكلفته واختلافات جودته من مورِّد رخام إلى آخر، كانت المقاسات المرسلة من رضا في غاية الدقّة وبالسنتيمتر، كون المدخل نفسه يأخذ شكلا دائريًّا صعب التنفيذ، ويحتاج لدقّة متناهية، يملأ سامي استمارة أمر الطلب وسيرفق معه صورة من المقاسات المرسلة إليه بخط المراقب رضا عسكر شقيق المتولي، ويرسلهما بالفاكس إلى عناية الأستاذ أحمد المصري، وهو المدير الإداريّ الفلسطينيّ للشركة، ونائب

المهندس سعد بهلول، وممثِّل الشريك السعوديّ في الشركة، وهو المسؤول عن عمليّات الشراء ذات القيم الماليّة المرتفعة.. بعد وصول طلبيّة الرخام بيومين، سيتَّصل رضا مهتاجًا صارخًا بأنَّ الرخام وصل بمقاسات أقلّ من المقاسات المطلوبة، مباشرة سيتّصل سامي بالأستاذ المصري ويبلغه بالخطأ لمراجعة مورِّده واستعادة رخامه الناقص في المقاس وإرسال بدل منه على اعتبار الخطأ من عنده.. سيتّصل المصري أوّلا برضا ويطلب منه تسجيل مقاسات قطع الرخام الموجودة عنده وإبلاغه بها، عند ذلك سيكتشف أنَّ مقاسات الرخام المرسل مطابقة لأمر الطلب، وسيتّصل بسامي ليسأله عن الخطأ الوارد في أمر الشراء، في هذه اللحظة نفسها سيطلب أبو عصام من سامي أصل الرسالة المكتوبة بخطّ رضا ليراجع عليها ما وصله من مقاسات الرخام، وقبل أن يخرجها له سامي بحسن نيّة، يأتيه اتّصال الأستاذ أحمد المصري، يسأله سؤالا محدَّدًا:

- هل المقاسات التي كتبتها في أمر الطلب أخذتها من رضا في الهاتف أم أَرسل لك بها ورقة مكتوبة؟
- أرسل المقاسات بورقة مكتوبة بخطّ يده، وعند

سعادتك نسخة منها بالفاكس..

- اسمع يا سامي حرِّز أصل الورقة بخطّ رضا عندك وأرسلها لي في أوّل حافظة، لا تُضيِّع هذا الأصل.. لأننَّا سنفتح تحقيقاً بالخصوص.
- أرسل رضا في طلب الورقة يا فندم ليراجع عليها مقاسات الرخام الواصل..
- أعطه صورة منها واحتفظ بالأصل.. وأخبره بأنَّ هذه أوامر أحمد المصري..
- حيَّاك الله يا فندم.
- مع السلامة.

ينظر أبو عصام إليه أثناء المحادثة الهاتفيّة بريبة، ينتظر نهايتها على أحرّ من الجمر.. وعندما يخبره سامي بفحواها سيغضب صائحًا:

- ليه بس كبَّرت الموضوع ووصَّلته للأستاذ أحمد المصري؟ أحمد المصري راجل مش سهل.. ده رقيب على المهندس سعد شخصيًّا، وسيتسبَّب للفرع كلّه في مشكلة كبيرة داحين.
- بس مش أنا اللي اتّصلت بالأستاذ أحمد.. رضا هو اللي اتّصل بيه وهو اللي عرَّفه بوجود خطأ في

المقاسات..

يضرب أبو عصام كفًّا بكفّ وهو يقف متململا، ويردِّد لزمته الشهيرة:

- وده حركة؟!

ويهمّ بالخروج من المكتب، ومن عادات أبي عصام أنَّه إذا تحدَّث في هاتفه المحمول رفع صوته عاليًا جدًّا حتى يسمعه من هم بآخر الشارع، وقبل أن يغلق باب المكتب خلفه، اتّصل على المتولي في مصر، كأنَّه يسجِّل موقفًا ويخلي مسؤوليّته عمَّا سيحدث لرضا من مشكلات مع الأستاذ المصري.. يضحك سامي طويلا على هلع أبي عصام، فالرجل نفسه لم يتوقَّف منذ سافر المتولي حتّى اللحظة من الاتّصال بالشركة بجدَّة للتأليب ضدَّه، حتّى هاتفه حامد السوداني مرَّتين يستفسر في الأولى عن ارتفاع أسعار توريد السيراميك في مكَّة عن مثيلاتها في جدَّة، وأجاب سامي بأنَّ هذه الطلبيّة تحديدًا كانت ذات مقاسات خاصّة نادرة الوجود في الأسواق، وفي الثانية سأله عن سر اختلاف أسعار التركيبات لمقاول الرخام والسيراميك في العقد، والتفاوت الكبير بين سعر المتر في أعمال تبدو متماثلة، شرح له سامي أنّ الأمر متوقِّف

على مقاس السيراميك فكلَّما صغر مقاس البلاطة كلّما ارتفع سعر مصنعيّة التركيب، كما يتوقّف كذلك على الأشكال الزخرفيّة التي يطلبها المالك.. فهم السوداني أنَّ العقود سليمة، كما فهم أيضًا أن سامي هو أوفى الناس للمتولي في غيابه.. رغم ما يبدو عليهما من سوء تفاهم أحيانًا في إدارة ملفّ المستخلصات والمطالبة بالدفعات للمقاولين، فالمتولي دائمًا يميل إلى امتلاك المقاول بتأخير الدفعات عنه ليجبره على تنفيذ أوامره، وسامي يميل إلى سرعة صرف الدفعات لاحتياج المقاولين لسيولة دائمة!

سينتهي التحقيق الذي فتحه أحمد المصري بتحميل رضا عسكر نصف قيمة الرخام المهدر، على أن يتمّ خصمه من راتبه الشهريّ على دفعات.. سيفقد رضا نصف راتبه تقريبًا ولشهورٍ طويلة قادمة.. لكنَّ المتولي سيهاتفه من مصر طالبًا منه عدم إرجاع الرخام، وعدم التصرُّف في درج المدخل حتّى يحضر من سفره، وعندما سيعود سيكون محتقنًا بالغضب من سامي، سيفرغ غضبه في صورة انتقاد حادّ وعنيف بسبب كثرة اتّصالات جميع العاملين بالإدارة، يفهم سامي حقيقة غضب

المتولي جيّدًا لكنَّه لن يبرِّر له موقفه من رضا إلا إذا سأله سؤالا مباشرًا، والمتولي لا يريد أن يسأله لينفي عن نفسه تضامنه مع شقيقه، خاصّةً بعد تدخُّل أحمد المصري.. سيترك سامي الأمر برمَّته إلى كياسة الإدارة في إفهامه أنَّ رضا هو من شوَّش على نفسه باتّصالاته الهائجة ومحاولته إلصاق الخطأ بسامي، ولولا ذلك لمرَّت الأمور بسلاسة.. بعدها سيهدأ المتولي قليلا، وسيبدأ بمعالجة أمر درج المدخل بنحت السنتيمترات الزائدة من الدرجات المسلَّحة لدرج المدخل بالكمبروسر حتّى تتطابق مع مقاسات الرخام المرسلة من جدَّة.. لن تتكلَّف الشركة غير قيمة إيجارات الكمبروسر ويوميّات العمَّال الدكارنة- الأفارقة- الذين يقومون بالتكسير، وسينجو رضا من عقوبة الخصم، وسيتغاضى أحمد المصري عن العقوبة الإداريّة إكرامًا للمتولي.. لكنَّه سيعتبر سامي منذ تلك اللحظة رجُله الأمين في فرع مكَّة!

٨ – زفاف على الكورنيش!

رغم بعض الجفاف في طبع سامي، وجفوله أحيانًا من مصادقة المصريّين، إلا بعد إخضاعهم إلى مراقبة طويلة نسبيًّا للتأكُّد من خلوّهم من عيوبٍ معيّنة، مثل الحقد وتدبير المقالب وتمنِّي فشل الآخرين، وهي العيوب الأساسيّة التي يحذرها سامي كلّ الحذر، ويخاف من مغبَّتها كلّ الخوف، ففيما عداها بالنسبة إليه أمورٌ ثانويّة ممكن التأقلم والتعايش معها!! إلا أنَّه لا يعدم وجود أصدقاء، لقد جُبل على مصادقة أصحاب الجنسيَّات الأجنبيّة بسرعة كبيرة، كأنَّه يريد من خلال هذه الصداقات متعدَّدة الجنسيّات زيارة العالم كلّه، ومعرفة طبائع كلّ المجتمعات وهو في مكانه مقيم! كما له أصدقاء مقرَّبون من المصريّين، وأصبح موظّفو إدارة المقرّ الرئيسيّ من المعجبين به، ويتمنَّون خدمته في أيّ ظرف..

هؤلاء الأصدقاء والمعارف سيرتِّبون له ولعروسه،

زفافًا متميّزًا، سيؤجِّرون للعروسين سيّارة هوندا سيفيك موديل العام، ويزيِّنونها بالورود، وسيحشدون موكبًا من عشر سيّارات لأصدقاء سامي وعوائلهم، وسيبدأون الزفاف من أمام صالة مطار الملك عبد العزيز الدوليّ بجدَّة، سيقود الأستاذ حامد السوداني الموكب، بينما خيَّروا سامي بين أن يقود السيّارة المستأجرة بنفسه لتتوفّر له خصوصيّة أكثر مع عروسه، أو يتطوَّع أحدهم بقيادتها، ويجلس العروسان في المقعد الخلفيّ كما في الأفراح المصريّة، سيختار سامي قيادة السيّارة وبجواره عروسه، على أن يتبع سيّارة قائد الموكب حتّى لا يتوه في الطرقات، سيفاجأ بالأستاذ حامد يقود في طريق المدينة عكس اتّجاه جدَّة، حتّى يصل إلى تقاطع أبحر الجنوبيّة ليبدأ القيادة على كورنيش البحر الأحمر بداية من كورنيش أبحر الرائع.. تتلألأ أنوار مدينة جدَّة المبهرة على طول الكورنيش الممتدّ في ظلام ليلة الجمعة، فيجعلها تتألَّق كمهرجان.. يهمس سامي في أُذن دعاء:

- جدَّة عروس البحر الأحمر.

تومئ دعاء إيماءات خجلى وهي ترتدي فستان زفافها الأبيض المطرَّز بنقوش من الدانتيلا.. يبدأ الأستاذ حامد الإعلان عن موكب عروس مصريّة، يُشعل ضوء الانتظار المتقطِّع، ويطلق كلاكس سيّارته بنغم رتيب.. وتتبعه السيَّارات العشر على نفس المنوال.. فطريق الكورنيش لا توجد به منازل يتعرَّض سكانها للإزعاج، وجدَّة عمومًا تسهر ليلة الجمعة إلى الفجر! يستمرّ الموكب حتّى يصل إلى مسجد الرحمة أو المسجد العائم الذي يقع داخل مياه البحر كأنَّه شبه جزيرة على طرف الشاطئ، يتوقَّف الموكب، ويهبط الجميع لأخذ الصور التذكاريّة مع العروسين وفي الخلفيّة المسجد رائع التصميم والبحر الممتدّ ليلتقي في الأفق مع السماء المطرَّزة بالنجوم!! ثمّ يستأنفون السير على نفس الوتيرة السابقة حتّى منطقة كورنيش الحمراء.. ستلاحظ دعاء على طول مسافة كورنيش جدَّة الذي يمتدّ أمام موكب العرس لعدّة عشرات من الكيلو مترات، نظافته وزينته بالأنوار المبهرة، وبالتماثيل المنحوتة والمجسَّمات الفنّيّة لأشكال مختلفة تمثِّل قواقع ونباتات وأشكال جماليّة، مع انتشار الخُضرة وأشجار النخيل، إنَّها صورة تقلب فكرتها تمامًا عن قرب

العيش في صحراء قاحلة! كما لاحظت انتشار أكشاك ومحلات بيع الذرة المقليّة والأيس كريم بمختلف أنواعه العالميّة المشهورة، بالإضافة إلى أسماء المطاعم العالميّة للبيتزا والبرجر والوجبات السريعة.. هذه المناظر أدهشتها بشدَّة، حتّى توقّف قائد الموكب في موقف سيارات عامودي على كورنيش الحمراء، ترجَّل المحتفون بهما من السيَّارات، وهبطت مع سامي، ليدهشها الجمال الفاتن لكورنيش الحمراء، إنَّه يشبه أرقى منتجع سياحيّ تحلم بزيارته، كما أدهشها وجود مساحة كبيرة لألعاب الأطفال فيما يشبه الملاهي المفتوحة.. أشار لها سامي جهة نافورة جدَّة وهو يقول:

- على فكرة دي أطول نافورة في العالم..

أطلقت آهة خافتة تعبِّر عن انبهارها، وأخذت تتأمَّل النافورة باهتمام، لاحظت أنَّها على هيئة مبخَرة ذهبيّة يخرج منها شلال كثيف من الماء يعطي منظرًا أقرب ما يكون للشراع من خلال الإضاءة الساطعة التي تجعلها تبدو في بياض الثلج.. لم تستغرق طويلا في تأمُّلها، إذ قطعه أحد أصدقاء سامي يقدِّم لهما قطعتين من أيس كريم موفمبيك.. تلفَّتت دعاء حولها، لتجد صديقين

آخرين يُتمَّان توزيع الأيس كريم على باقي أفراد المحتفين..

– واااااو!

تعليق دعاء المقتضب على القضمة الأولى من الأيس كريم الفاخر، سيشير عليها سامي بالتجوال قليلا على ممشى الكورنيش، ستسير معه في تحفُّظ، وإن كانت منبهرة تمامًا بما تراه حولها، ومفعمة بأمنيات الحياة الرغيدة التي يمكن أن تحياها في هذه البلاد الطيّبة التي تجمع بين الأصالة ومواكبة التطوُّر المذهل.. ستمر عشرون دقيقة أخرى أو أكثر قليلا ثمّ تتصاعد صيحات أصدقاء سامي وعائلاتهم مهلِّلين ومستدعين العروسين.. لقد حان وقت العشاء.. تنظر دعاء فإذا بأفراد موكب الزفاف قد انقسموا إلى فريقين، وإذا بفريق الرجال والشباب قد تحلّق في حلقة دائريّة مفترشًا بعض الأغطية الخفيفة على أرضيّة الكورنيش، وبجوار حلقتهم تحلَّقت حلقة أخرى لفريق النساء والفتيات، وهنَّ ينادين على العروس بصخبٍ ومرحٍ ودعابة.. بعض الشباب والأُسر من سعوديّين وجنسيّات مختلفة من مرتادي الكورنيش يشاركونهم الاحتفال بتحيّتهم

والإشارة إليهم، لكنَّهم يستبْقُونَ مسافة تحافظ للمحتفين على بعضٍ من خصوصيّة محبَّبة.. تجلس العروس وسط حلقة النساء كدُرَّة التاج.. وتنطلق زغرودة خفيضة الصوت من خلف النقاب الأسود لإحدى السيّدات في الجوار.. وترنّ الضحكات، وتهتف سيّدة بشيء من جرأة:

- أنتِ مكسوفة ولا إيه يا عروسة؟! ما تفُكّي يا بت شوية.. إلا ما شفناكِ حتى حطيت إيدك في إيد عريسك ولا مشيتوا مع بعض أنكجيه!!

ازداد تورُّد وجه دعاء بحمرةٍ أبانت أكثر عن جماله، وأطرقت إلى الأرض.. تولَّت الردّ عنها بعض الجالسات:

- أصلها مُحرِمة بالعُمرة.

تصعَّبت السيّدة الجريئة وهتفت:

- يا حبيبتي!! ربّنا يا ربّ يتقبَّل منكم ويسعدكم ببعض ويجعل أيامكم كلّها جنّة..

أمَّنت الحاضرات على دعائها، ثمّ قرَّبت إحدى الفتيات أطباق الطعام.. هتفت سيّدة:

- كُلي يا عروسة متتكسفيش.. الليلة ليلتك يا قمر.. ده مشويّات من عند مطعم مشويّات

الرشيدي أحسن واحد بيعمل مشويّات في جدَّة كلّها.

مرَّت الأمسية وقد بدأت دعاء الشعور بالألفة تجاه المهنّئات.. سيطلب الأستاذ حامد من العروسين أن يقفا وفي خلفيّتهما نافورة جدَّة لالتقاط الصور التذكاريّة.. يتحلَّق حولهما الجميع لأخذ العديد من الصور مع الخلفيّة الرائعة.. هؤلاء الناس جميعًا يزفُّونها كأنَّها ابنتهم، لم تتصوَّر أن يكون زفافها في الغربة على هذا الشكل المبهج.. تذكَّرت دموع أُمّها وهي تودِّعها في مطار القاهرة، فانسابت دمعتان على وجنتيها، ولاحظت بعض النساء دموعها، فتسابقن إلى احتضانها في عطف.. همست إحداهنّ في أُذنها:

- إحنا كلّنا هنا أهل.. ومفيش غربة في مكَّة ولا جدَّة.. أيّ حاجة تحتاجيها اتّصلي بينا على طول..

حتّى بعض الرجال تأثَّروا، مسح الأستاذ حامد دمعة غافلت عينه، كانوا أيضًا في حاجة ماسّة لزفاف عروس بردائها الأبيض ليشعروا بحنينهم المستخفي للوطن! أشار للركب فبدأ بالتحرك.. ليتوقَّف في محطَّته

الأخيرة أمام تحفة معماريّة أخرى على الكورنيش البديع، إنَّه مسجد الفارسيّ بلونه الطوبيّ، وتداخل قبابه بشكل فنّيّ فريد، وانعكاس صورته ليلا على ماء البحر.. سيُبدع المصوِّر إذ يلتقط صورة للعروسين وفي خلفيّتهما المسجد مرّتين، مرّة في مكانه رابضًا فوق الكورنيش، والثانية صورة انعكاسه على صفحة ماء البحر كأنَّه صورة للمسجد في مرآة مقلوبة.. ستظلّ هذه الصورة أجمل صور زفاف العروسين على الإطلاق!

بعدها سيودِّع الموكب العروسين، متمنّيًا لهما السعادة والتوفيق، ويترك سامي ينطلق بالسيفيك المزيَّنة بالأزهار، وبجواره دعاء إلى مكَّة المكرَّمة، حتّى الأصدقاء من مكَّة سيفضِّلون التخلُّف عن العروسين بجدَّة، وإن ظلَّت بعض سيَّارات الأصدقاء ترقب سيّارتهما عن بُعد للاطمئنان على الفتى والفتاة اللذيْن أعادا لهم طعمًا من طعوم الحياة يفتقدونه كثيرًا في الغربة!

يمتدّ الطريق السريع متّسعًا أمام عيني دعاء، تلاحظ بعد فترة أنَّه يتكوَّن من أربع حارات للسيَّارات غير حارة أخرى سمعت من سامي أنَّها تسمَّى حارة خدمات! يفصل بين كلّ حارتين خطّ ممتدّ من قطع فسفوريّة تسقط

عليها أضواء كشّافات السيّارات فتضيء ظلام الليل.. تشعر أنَّ السيَّارة التي يستقلانها حديثة وسريعة، وتلاحظ بتكرار النظر إلى عدَّاد السرعة أنَّ سامي لا يحبّ تجاوز السرعة المقرَّرة على الطريق، العدَّاد عادة ما يشير إلى مائة وثلاثين كيلو مترًا بالساعة.. ومع ذلك فالكثير من السيَّارات تمرق جوارهما محدثة صافرة تدوِّي في هواء الليل كأنَّها طائرات تتأهَّب للإقلاع..

- كانت ليلة جميلة..

يقولها سامي على سبيل قطع الطريق في الحديث.. لا تتجاوب معه، وتفضِّل تركيز نظرها على الطريق، يسمعها بعد قليل تُتمتم بالتلبية.. تستريح نفسه قليلا، فلعلَّ تحفُّظها الزائد كلّه يعود لخشيتها من إفساد إحرامها.. بعد قرابة نصف ساعة، سيبطئ سامي من سرعة السيّارة تدريجيًّا وينحرف بها جهة اليمين، حتى يتوقَّف تمامًا في محطَّة للوقود، تبهر أضواء المحطَّة عيني دعاء التي اعتادت ظلام الطريق، تلاحظ أنَّ محطَّة الوقود مدينة صغيرة متكاملة بلا سكَّان، مطعم ومسجد ومركز خدمات سيَّارات، وسوبر ماركت، ومقهى للشاي المغربيّ، وآخر للقهوة العربيّة، ومنفذ للوجبات السريعة..

- حاغيَّر هدومي وألبس الإحرام في مسجد المحطَّة.. لو محتاجة حاجة، لو عاوزة حاجة باردة؟!

قال سامي.. أجابته:

- أنا مُتخمة.. ما أقدرش أحط حاجة تانية في بطني..

تصمت لحظة، ثم تضيف بسرعة:

- شكرًا يا سامي..

تبتسم ابتسامة باهتة تعبيرًا عن الامتنان.. يمضي سامي إلى وجهته، ويعود مرتديًا إزاره ورداءه الأبيضين.. ثمّ يستأنف الرحلة إلى مكَّة.. فلا يسعه طالما انتوى العُمرة، أن يتجاوز حدّ الحرم المكّي دون أن يكون مُحرمًا.. يحلُّ الإجهاد بعد هذا التوقُّف الأخير سريعًا على دعاء، لا شكّ أنَّه كان يومًا طويلا مشحونًا بالمشاعر المتضاربة بين فرح بلقاء الزوج، وشجن ولوعة من فراق الأهل والوطن، وخوف من المستقبل والمجهول، والتوتّر الطبيعيّ الذي يصاحب كلّ عروس ليلة زفافها.. ستظلّ تغالب النوم الذي يهاجم جفونها ليثقلها بشدَّة.. حتّى تنتبه بغتة على إشارة سامي إلى بوَّابة مكَّة المكرَّمة، تلمح مجسَّمًا ضخمًا لحامل المصحف وفي وسطه القرآن

الكريم، يبرز المجسَّم العملاق كبوَّابة بعرض الطريق تمرّ أسفله السيَّارات، تسري قشعريرة مفاجئة في أوصال دعاء، أشعرها منظر البوَّابة برهبة المكان، إنَّها مقبلة على مدينة غير عاديّة.. سمعت سامي يتمتم:

- أهلا بكِ في العاصمة المقدَّسة.
- حقًّا إنَّها لمدينة مقدَّسة..

قالت لنفسها وتملَّكها الوجل، فقدت مقاومتها واستسلمت للنوم.. ينظر إليها سامي بعدما تخطَّى إشارة تقاطع ميدان زمزم، يراها مستغرقةً في النوم، سينحرف بالسيَّارة جهة اليسار، متجّهًا إلى شارع الستّين بدلا من الاستمرار في طريق أُمّ القُرى إلى الحرم! ومن شارع الستّين يمينًا إلى حيّ النزهة، حيث يقع المسكن الذي استأجره كعشٍّ للزوجيّة في قُبالة المسجد الكويتيّ، حيث يقع مقرّ عمله على بعد مائة متر، سيحاول إيقاظ دعاء برفق، تفيق دهِشة تنظر حولها كأنَّها تتساءل أين أنا؟ يوضِّح لها سامي أنَّهما أمام مسكنهما، ستهتف في قلق وبنصف وعي:

- احنا مش حنعمل العُمرة؟!
- اطلعي ريَّحي شوية وبعدين ننزل نعمل العُمرة إن

شاء الله.. من الواضح إن اليوم كان صعب قوي عليكِ.

عيناها تتساءلان في حيرة وهل يجوز هذا؟ يجيبها في هدوء:

- عادي جدًّا اطلعي نامي دلوقت وبعدين نعمل عُمرتنا إن شاء الله..
- وأنت؟!
- حنام برده بس في أودة الضيوف..

تترجَّل من السيَّارة في تكاسل وإجهاد، تنتظر حتّى يحمل سامي الحقيبة الكبيرة التي أحضرتها معها، ويقودها على الدَرج إلى شقَّتهما..

- هو احنا مش حنعمل العُمرة يا سامي؟

أوّل سؤال تسأله دعاء بعدما تفتح عينيها بعد نومٍ قلِق، استيقظت في منتصف النهار تشعر بعدم اتّزان رأسها، سيبتسم سامي الذي يستعدّ للذهاب إلى الحرم لأداء صلاة الجمعة، ويُفهمها برقّة أنَّ الجوّ الآن قائظ الحرارة، وأنَّ الحرم مزدحم لصلاة الجمعة، وأنَّهما سيؤجِّلان أداء العُمرة إلى قرب وقت المغرب.. تتأفَّف وتمضي إلى الحمَّام،

تكتشف أنَّها نامت بفستان زفافها، تترك سامي يهبط لأداء الصلاة وتقرِّر الاعتناء بنفسها، بالكاد تستطيع تغيير ملابسها لتجد نفسها منكفأة على فراشها من جديد، لن تعرف متى عاد سامي، ولا متى أعدّ لهما طعام الغداء، كان الوقت عصرًا وقد جاء لإيقاظها برفق.. تستعيد هذه المرَّة جزءًا كبيرًا من نشاطها، وتبدأ في أخذ جولة في الشقَّة لتتعرّف على معالمها، تقف بباب المطبخ تبتسم للموقد، تلتفت لسامي وهي تقول بسعادة طفوليّة:

- خلِّيني أعمل كوبَّايتين شاي..
- تفضَّلي يا ستي..

أخيرًا يأتي موعد الذهاب إلى الحرم لأداء العمرة.. تعيش دعاء في انبهارٍ كامل، أمس بهرها جمال كورنيش عروس البحر الأحمر بنظامه وأناقته، واليوم تنبهر بروحانيَّات الحرم، واستقبال الكعبة المشرَّفة!

سيعودان بعد سهرة طويلة في الحرم، إلى عشِّهما الصغير ليبدءا حياتهما الجديدة.. سينسى سامي في غَمرة المشاعر المتأجَّجة والمترعة بالسعادة، مارثون المفاوضات مع أسرة دعاء لإتمام الزفاف، والسماح لها بالسفر إليه

دون أن يكون لديه شقَّة مؤثَّثة في مصر.. تنتهي المفاوضات بعد لأْيٍ إلى التوقيع على قائمة أثاث للعروس بمبلغ مائة ألف جنيه، بالإضافة إلى التوقيع على شيك على بياض مقابل الشقَّة التي لم توجد بعد! رغم تحذيرات والديه، سيرسل له حموه وثيقة القائمة، والشيك الفارغ ليوقِّع عليهما ويعيد إرسالهما له بخطاب سريع ومسجَّل.. سينسى قيمة الإيجار السنويّ التي يدفعها إلى السكن العائليّ الخاصّ بمكَّة، والمبالغ التي أنفقها لتأثيث هذا السكن بكلّ ما يلزم لحياة أسرة عصريّة، ولو كان بعضه مستعمَلا، لكنَّه يظلّ مكلِّفًا لشابٍّ في مستهلّ حياته المهنيّة..

ستنسى دعاء شجن الوداع الحزين لأسرتها، ومخاوفهم وتحذيراتهم، والصفات التي وصم بها أقاربها سامي، لتغييره اتفاقاته مع أسرتها، والمطالبة بسفرها إليه لينفرد بها في الغربة بلا أهل ولا سند! سيُلقيان كلّ هذا وراء ظهريهما فقد صار جزءًا من الماضي، وينهلان من نهر السعادة.

٩ – نافذة جديدة

العمل في المملكة عمومًا، خاصّةً في القطاع الخاصّ، يكون على دوامين، الأوّل من الساعة التاسعة صباحًا إلى الواحدة بعد الظهر، والثاني من الساعة الخامسة عصرًا إلى التاسعة أو العاشرة مساءً، في العادة، وهو نظام لا يجعل هناك أيّ وقت فراغ للعامل خارج أوقات الدوام، فبين الدوامين الصباحيّ والمسائيّ فترة تفي بالكاد بالغداء والقيلولة، وفي المساء لا تكاد تفي بتسوُّق الاحتياجات الأساسيّة للأسرة، نظام عمل سامي في الشركة على العكس من ذلك، فهو على دوامٍ واحدٍ صباحيّ من الساعة الثامنة وحتّى الخامسة بعد العصر يتخلَّله ساعة لأداء صلاة الظهر، واستراحة يقضيها بالطبع في المكتب، هذا النظام يسمح له أن يكون حرًّا في وقت المساء بالكامل ولساعات طويلة قبل النوم..

المسافة بين سكنه ومقرّ الشركة يمرّ فيها وسط سوق الكمبيوتر، أحد سوقين كبيرين رئيسيّيْن في مكّة، أحدهما في مركز عطا الله في العزيزيّة، والآخر سوق النُّزهة الذي يمرّ به يوميًّا، وسامي شغوف بالكمبيوتر

وإكسسواراته وبرامجه وطرق صيانته، ولا شكّ أنَّ شركات الكمبيوتر تطرح طرازًا جديدًا أحدث للمستخدمين كلّ ستّة شهور تقريبًا، ممَّا يجعل حواسيب الشركة قديمة ومستهلَكة ولا تواكب كلّ جديد في عالم الحواسيب لا من حيث سرعة الأداء ولا حجم مساحة التخزين، ويُعرِّضها لأعطالٍ متكرِّرة، فهي تحتاج لصيانة دوريّة، يتردَّد سامي كثيرًا في أوقات فراغه على مركز عصر الكمبيوتر القريب من مكان سكنه، فهو يُعتبر على ناصية الشارع الذي يسكن فيه..

يعمل بمركز عصر الكمبيوتر مهندس عبد القادر علي، وهو شابّ في بداية الثلاثينيّات من عمره، سودانيّ الجنسية، أسمر البشرة، بشرته في لون بشرة أهل صعيد مصر الأوسط، يضحك قائلا:

- ناس السودان يلقِّبونني بعبد الغادر الأبيض.

مربوع الجسم أنيق الهندام في غير إفراط، يرتدي دائمًا قُمصان ذات كُمّ طويل، فاتحة اللون مخطَّطة بخطوط خفيفة بألوان أغمق على بنطال كلاسيكيّ، يحرص على وضع القميص داخل البنطال مُبرزًا حزام وسطه الجلديّ الأنيق.. يركِّز عبد القادر عينه في عين محدِّثه

ويتكلَّم ببطء مباعدًا بين الكلمات، محرِّكًا رأسه وكفَّيه، ويتحرَّك جسمه كلّه لكن بدرجة أقلّ، ويستخدم كثيرًا من المصطلحات الإنجليزيّة أثناء أيّ حديث.. عدا إلمامه بعدد من علوم الحاسوب وهو مجال تخصُّصه الدراسيّ والمهنيّ، فإنَّه يبدي ميلا شديدًا للثقافة في مجالات عدَّة لا يربط بينها رابط محدَّد!

كما يعمل بالمركز زيني وهو شاب إندونيسيّ، لا يتجاوز طوله مائة وستون سنتيمترًا، نحيل الجسد، أسمر البشرة، يتمتَّع بسحنَة جاويّة تضفي عليه خفَّة ظلّ واضحة، ينبت بوجهه شارب خفيف متناثر الشعيرات، شعر رأسه فاحم وناعم يتدلَّى خلف رأسه أسفل القبَّعة التي تشبه الطربوش، غير أنَّها أقل ارتفاعًا من الطربوش، ويرتدي عادةً قميصًا من قماشٍ شديد النعومة كأنَّه من حرير طبيعيّ، أو الساتان، متداخل الألوان على نحوٍ ما، فضفاض الأكتاف كأنَّ من يرتديه لا يملك عظامًا في الكتفين! أو يرتدي قميصًا أبيض على هيئة جاكت قصير، على بنطال كلاسيكيّ واسع، يتحدَّث العربيّة ببطء وبلكنة واضحة وبتقطيع بين حروف الكلمات أحيانًا كأنَّه يحتاج إلى جزءٍ من

الثانية ليستجمع باقي حروف الكلمة، واعٍ بشدّة لما يدور حوله، كثير المزاح كلّما سنحت الفرصة، سيكتشف سامي لاحقًا مدى ثقافته خاصّة وأنَّه في الأساس طالب علم جاء إلى مكّة لطلب العلم، وأنَّه يعمل في أوقات تُعتبر بالنسبة له هي أوقات فراغ بشكلٍ ما! يجيد اللُّغة الملاويّة وهي اللُّغة الإندونيسيّة السائدة أو الرسميّة، وهي كذلك لغة أهل ماليزيا، لذلك يعمل زيني في موسم الحجّ في مقرّ بعثة الحجّ الماليزيّة بمكّة المكرَّمة ومقرّها بشارع صدقي بالعزيزيّة قريبًا من مشعَرِ مِنَى، في أعمال الترجمة ويقوم كذلك بمهمَّات إداريّة تتعلَّق بتسجيل الأسماء والعناوين على الحاسوب، يستغرق هذا العمل حوالي شهر ونصف كلّ عام ويحصل من خلاله على مكافأة سخيَّة تكفيه ليعيش منها طوال العام بمستوى متوسط!

سيصبح عبد القادر وزيني صديقين مقرَّبين لسامي، يقضي معهما أمسيات كثيرة داخل مركز عصر الكمبيوتر.. حتّى لاحظه المطوِّع أبو مازن مالك المركز وهو سعوديّ في الخمسين من عمره، مربوع القوام، يحتفظ بلحية وشارب كثَّين في وجهه، يعطيانه مع

الشماغ ذي النقوش الحمراء، والعِقال، قدرًا إضافيًّا من الوقار، يترجَّل من سيّارته مارسيدس بنز الحديثة، ويخطو بثبات بثوبه ناصع البياض إلى واجهة المركز في بعض الأمسيات، فيُخلي له عبد القادر مقعده خلف المكتب، وينهض ليجلس في أحد مقعدين مخصَّصين للعملاء، أو يذهب ليقف مع زيني خلف الطاولة المرتفعة لورشة الصيانة، يسأل المطوِّع سامي:

- حيَّاك الله يا مصري، إيش إنت جديد معانا هنا في المركز؟!

يبتسم سامي في أدب ويهمّ أن يجيب، تسبقه التفاتة أبي مازن جهة عبد القادر ونداؤه:

- مش تعرِّفنا على الرجَّال يا مهندس عبد الجادر؟

يشير عبد القادر إلى سامي وهو يهمس بخجل:

- الأخ سامي ابن النيل يعمل في شركة مغاولات وزبون مرَّة للمركز.
- والنعم.. هلا والله يا مصري.. وأنا أجول كل ماجي المركز ألجى رجَّال مصري، والله حسبت عبد الجادر شغَّلك ونسى يخبّرني..

يقول أبو مازن وهو يبتسم لسامي، فيجيبه:

- ما حدش يقدر.. حضرتك الخير والبركة.
- ترى المحلّ محلّك يا أبو.. وإيش يجولولك يا أبو إيش؟
- لسة يا عمِّي معنديش أولاد..
- عزَّابي؟
- لسة متجوز جديد..
- منك المال ومنها العيال إن شاء الله..

يتلجلج سامي لا يجد ردًّا مناسبًا على تهنئة أبي مازن.. يضحك أبو مازن وهو يقول:

- ما تجول عُجبالك يالمطوِّع؟!

تزداد حيرة سامي، فيضيف أبو مازن:

- انتو المصاري ما تعرفوا الزواج الثاني.. تخافون مرَّة من حريمكم.. الرجَّال عندنا يتزوَّج مثنى وثُلاث..

بعد هذه الأمسية أصبح من المألوف أن يجد أبو مازن سامي في المركز خلال جولاته التفقُّديّة نصف الأسبوعيّة، توطَّدت بينهما علاقة تسمح بالحوار والنقاش، وحضور بعض العزائم والمناسبات، شيء واحد ظلّ سامي محجمًا عنه، لم يحاول أن يطوِّر هذه العلاقة

إلى علاقة أُسريّة، رغم تلميح أبو مازن لذلك عدَّة مرَّات، قال له ذات مرّة:

- إلا ما سويت لنا عزيمة يا مصري على ملوخية، ولا على فتَّة كوارع.. تَراك رجَّال بخيل!

يبتسم سامي في خجل ولا يردّ، ويغيَّر أبو مازن دفَّة الحديث، فيتحدَّث عن ذكريات زيارته الأخيرة لمصر، ووجبة الكباب التي تناولها في الحُسين، ووليمة السمك والجمبري التي دُعي إليها في الإسكندرية..

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

- عاوز تاكل ايه النهاردة يا حبيبي؟

تسأل دعاء سامي بوجهٍ مُشرقٍ وملامحَ متطلِّعة.. يُعَدُّ هذا السؤال الصباحيّ أحد مفاجآت القدَر بالنسبة لسامي! مجرد استيقاظ دعاء قبل خروجه إلى العمل يُعتبر مكافأة ربانيّة، ربّما يكافئه بها الله تعالى على عملٍ صالحٍ عمله في سابق أيّامه ونسيه! دعاء لا تستيقظ عادةً قبل صلاة الظهر، فهي تسهر أمام فضائيّات (نايل سات) إلى ما بعد الفجر كلّ ليلة، تتذرَّع عادةً بحرارة الجوّ، وعدم قدرتها على النوم ليلا، لن يفلح سامي في إقناعها أنَّ إدمانها على النسكافيه والمشروبات الغازيّة ذات النسب

العالية من الكافيين يسبَّب لها كثيرًا من الأرق الليليّ.. تضطرّه ظروف العمل أن ينام عند منتصف الليل أو بعده بساعة على أقصى تقدير، فيما بعد شهر العسل وشهرٍ تالٍ له، لم يعودا يلتقيان في فراشٍ واحدٍ إلا لمامًا وربما بالصدفة البحتة!

تغيَّرت دعاء المدرِّسة المجتهدة النشيطة بشدَّة وبسرعة مذهلة مُذْ وصلت إلى مكَّة.. انقلبت إلى امرأة أخرى تقريبًا غير التي ارتبط بها سامي في مصر!! أغلب المتزوِّجين المصريين من أصدقائه قالوا له إنَّ هذا تغيير طبيعيّ يحدث مع الغالبيّة نتيجة نمط الحياة الاستهلاكيّ المترَف، وحرارة الأجواء بالإضافة إلى القعود من العمل وانشغال الأزواج الشديد والمرهِق بأعمالهم، يرضى الكثير من الأزواج في الغُربة أن يعيشوا في أسرة تشبه معيشتها حياة البنسيونات، لا سيّما قبل إنجاب الأولاد، فيكفي الرجل من زوجته أن تُعدَّ له طعامًا ما، وتغسل له ملابسه، وقد تشاركه أحيانًا بعض الواجبات الزوجيّة، تطلب التنزُّه ليالي الجُمع في الأسواق والسوبر ماركت، وتكنز ما تستطيع من حُليّ ذهبيّة تكافئ نفسها على مشاركتها زوجها الاغتراب، ثمّ

الكثير من الهدايا التي تحملها معها لأفراد عائلتها في مصر عندما يأتي موعد السفر لقضاء الأجازة!! بشرط أن تتفوَّق دائمًا هدايا عائلتها على هدايا عائلته كمًّا ونوعًا وقيمة، وإلا اتهمته بالبخل وجحود نعمة اغترابها معه، ونُكران جميلها!!

تتميَّز دعاء عن بقيّة زوجات أصدقائه بمزاجها المتقلِّب، أو حادّ التقلُّب، وسرعة غضبها من أشياء يظلّ سامي ينظر إليها على أنَّها تافهة لا معنى لها.. مُفنَّة ولا شكّ في فنّ صناعة الخلافات الزوجيّة الصغيرة والمتوسِّطة، فضلا عن تلك التي تنشأ اعتياديًّا بسبب عدم السماح بمهاتفة والدتها بشكل دوريّ أقصر جدًّا ممَّا تفرضه عليها ميزانيّة سامي المحدودة للمكالمات الدوليّة، واعتراضه الدائم على اختلاطها المبالغ فيه مع الجارات، فلا تكاد تجالسه في البيت بعد عودته من العمل وتناوله الغداء، فترة ما بعد المغرب إلى ما بعد العشاء بساعة على الأقلّ هي فترة مقدَّسة للجارات..

- مش كفاية إن أنا مستحملة المعيشة في الغربة والبعد عن أمي وأهلي وصديقاتي؟

تصرخ دعاء في سورات غضبها في وجه سامي عندما يثور

على ديمومة جلسات الجارات اليوميّة وطول مدَّتها عن المعتاد، يحافظ سامي كثيرًا على سمات رجلٍ ودودٍ متسامح، لعلَّ حدَّة طبعها تلين يومًا ما!

يحاول سامي أن يجد إجابة سريعة على سؤالها ليحافظ على معجزة إشراق وجهها، وكرامة استيقاظها المبكِّر، يقول مُحاذرًا:

- أيّ حاجة من يدك جميلة يا حياتي..
- قل يا سامي ما تغلّبنيش معك.. اختر حاجة نفسك فيها.. أنا النهاردة نفسي مفتوحة قوي إنِّي أعمل حاجة تبسطك..
- طيب اختاري إنتِ يا حبيبتي.. اختيارك أكيد حيبسطني أكتر..
- لأ قل أنت.. عاوزة أعملّك حاجة تكون نفسك فيها..
- كبسة دجاج؟

يقترح سامي في ابتهال.. يظهر التأفُّف كاملا على وجهها، وتنقلب سحنتها، تكاد تتشمَّم بأنفها رائحة كريهة.. تقول بضجر:

- ما لقيتش غير كبسة دجاج؟ أنا مش عارفة

الناس دول بتطيق الأكلة دي إزاي؟

يحاول سامي الحفاظ على حياديّة مشاعره، يتساءل في بساطة:

- إيه بس اللي مش عاجبك في الكبسة؟
- وجبة كده معقَّدة ومكوِّنات كتير فوق بعضها رز على بصل على طماطم على فراخ على زبيب..

تجيبه وما زالت تتأفَّف.. ثمّ تضيف كأنَّها تريد أن تُبغِّض الكبسة إلى نفسه:

- أنت متعرفش إن العالم رابط بين تخلُّف الشعوب دي ووجبة الكبسة!!
- على أساس إنِّ خلطة المحشي بالرز والبصل والطماطم والفلفل الحرَّاق والشبت والخُضرة، لما تتحط في ورق الكُرنب المسلوق، وفوقها طبقة البتنجان المحشي، وفوقها طبقة الكوسة المحشيّة مع الفلفل الرومي والبصل والطماطم في حلَّة واحدة دي قمَّة التقدُّم؟!

تأفَّفت دعاء، وآثرت الصمت، أضاف:

- ولا الكُشري بالدَقَّة ومية الخل والشطَّة الحمرا الحرَّاقة فوق رز على مكرونة على شعرية على

عدس وعدس أبو جبَّة وبصل مقلي وحمُّص.. دليل الأرستقراطيّة الشعبيّة؟!

- يوه بقى يا سامي.. احنا حندخل لبعض قافية على الصبح؟
- لا أبدًا يا حبيبتي، ده من باب الهزار مش أكتر.. خلاص اعملي الأكل اللي تحبيه.. أقولك: اعملي طبق بايلا.. إيه رأيك؟
- وإيه البايلا دي كمان إن شاء الله؟!

هتفت وهي تتَّخذ وضع الاستعداد للمناكفة إذ تظنّه يسخر منها، حافظ على بروده:

- البايلا دي يا ستي وجبة أسبانية شهيرة وراقية جدًّا.. نجرَّبها النهاردة زي أولاد الذوات إيه رأيك؟!
- بس أنا ما أعرفهاش قبل كده ويمكن....

قاطعها بأريحيّة:

- عندك الكمبيوتر والنت، ادخلي على عمّ جوجل، واكتبي طريقة إعداد طبق البايلا.. حتلاقي مئات الفيديوهات تشرح المكوِّنات وطريقة الإعداد.. عندك كلّ حاجة في الثلاجة..

تعترض في ضيق، وهي تشعر بورطةٍ ما:

- أيوة يا سامي بس...

- ياه أنا تأخرت قوي على الدوام، سلامُ عليكم..

يتظاهر بالنظر في ساعة معصمه، ويرسم وجهه تعبيرات الانزعاج، ويندفع جهة باب الشقَّة، وهو ينطق بالعبارة السابقة، دون أن يعطي لها فرصة الردّ ولو بكلمة واحدة.. يثير سامي كثيرًا انزعاجها خاصّةً عندما لا تدرك الخطّ الفاصل بين الجدّ والهزل في حديثه وتصرُّفاته، يتركها هكذا حائرة وهي التي خالفت قواعد نومها واستيقاظها خصِّيصًا من أجل سعادته؟! كان قرارها الاحتجاجيّ الأوّل على أسلوبه غير المشجِّع والاستفزازيّ جدًّا من جانبه تجاهها أن تتجاهله تمامًا وتخلد إلى النوم، وعندما تستيقظ تصنع أيّ وجبة سريعة التحضير، أو تهاتفه قبيل انتهاء عمله وتطلب منه إحضار وجبة طعام جاهزة متذرِّعة بأيّ ذريعة.. ستتَّجه فعلا إلى الفراش، يؤرِّقها شعورٌ ما، تتساءل لماذا لا تقبل التحدّي وتبحث عن تلك الوجبة المزعومة التي تسمَّى البايلا الأسبانيّة؟! تتّجه إلى المكتب، تشعل الكمبيوتر وتبدأ في البحث، ستكتشف أنَّ البايلا الأسبانيّة تتكوَّن

من كلّ مكوِّنات كبسة الدجاج، بدءًا من قطع الدجاج المخليّة، انتهاءً بالبهارات المختلفة، مرورًا بالأُرز البسمتي والبصل وبقيّة المكوِّنات، هي كالكبسة، كما تقول أحلام جارتها السوريّة:

- فَرْد شَكل!

مُضافٌ إليها قطع من السمك المخليّ، وفاكهة البحر وعدد من الأصداف البحريّة، والروبيان.. تمسك أنفها في تقزّزٍ مريع، دجاج مخليّ مع سمك بحريّ مخليّ:

- يَعْ!

ستقرِّر لاحقًا أن تقوم بإعداد كبسة الدجاج بعد أن تحتسي كوبين من النسكافيه.. تظلّ الكبسة أسهل وأكثر تجانسًا من البايلا الأسبانيّة.. يضحك سامي على مظهرها المرتاع وهي تصف له شعورها عند رؤية مكوِّنات البايلا.. تضيف:

- لقيت الكبسة متجانسة أكتر من البايلا..
- ومن المحشي والكُشري والطعميَّة والفتَّة أُم هُبر بالخل والثوم على فكرة..

يضحك سامي حتّى يكاد يستلقي على ظهره، قبل أن يبدأ في التهام طَبقه من الكبسة التي يحبُّها!

❖❖❖❖❖❖❖❖

يفاجَئ سامي بأنّ في مكّة المكرَّمة علماء دين يدرِّسون مذاهب أخرى غير المذهب الحنبليّ وتراث الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب! يخبره زيني أنه يتَتلمذ على يد الشيخ الدكتور عبد الله بن علي بن أحمد حافظ الحنفيّ إمام مسجد الوِزّة بحيّ الستّين! يتذكَّر سامي أنَّه قد سمع من أحد طلاب العلم الذين يفِدُون إلى مركز عصر الكمبيوتر بحثًا عن برامج الحاسوب المتخصِّصة في العلوم الشرعيّة وصفًا لإمام مسجد الوزِّة بالتصوُّف.. لا بدّ أنَّ سبَّب هذا الوصف الذي يرتقي إلى درجة الاتّهام من وجهة نظر ذاك الطالب، هو التزام الشيخ بمذهبٍ يخالف عامّة مشايخ المملكة! يخصِّص زيني يوم الأربعاء بكامله لدرس الشيخ عبد الله الحنفيّ، رغم أنَّ موعد الدرس فعليًّا لا يبدأ إلا بعد عصر ذلك اليوم.. لكنَّه يفضِّل أن يراجع ما فاته من دروس الشيخ خلال الصباح، كما ينشغل بإعداد ثوب أبيض يتَّفق مع وقار الدرس والمدرِّس!

يسأله سامي دهشًا:

- كيف تعرَّفت على هذا الشيخ الحنفيّ يا زيني؟
- ليس وحيدًا بمكَّة، بل أذهب أحيانًا لدرس الشيخ عبد الحفيظ المكِّي الحنفيّ، وهو من مدرِّسي مدرسة الصولتيّة..

يثار الموضوع مرَّة أخرى وهم بصحبة أبي مازن على مأدبة عشاء في منتزه وأسماك الدُرَّة على طريق مكَّة جدَّة السريع، أثناء تناولهم تشكيلة من أسماك الناجل الأحمر، والحريد الملوَّن، والروبيان المقليّ، يجيب أبو مازن على دهشة سامي بأنَّ أهل الحجاز عمومًا وخاصّة أهل مكَّة لا يلتزمون التزامًا حرفيًّا بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا بالفكر الوهَّابيّ الصافي، فما زال أهل مكَّة يمارسون كثيرًا من عاداتهم القديمة، مثل زيارة مقبرة المعلا صباح يوم العيد عقب الصلاة بالحرم الشريف!

في هذه الأمسية يحاول أبو مازن إثارة عبد القادر ليتحدَّث عن أحوال السودان خاصَّةً الحرب الممتدَّة بين الشمال والجنوب، وحكومة جبهة الإنقاذ التي تحمل توجُّهًا سياسيًّا إسلاميًّا ما، يحاول عبد القادر التملُّص من الإدلاء برأيه في وضوح وصراحة، لقد اعتاد من كفيله ألا يُقحم حديث السياسة في اللقاءات المختلفة،

لكنَّ أبا مازن ظلّ يحاور ويداور حتّى جرجره إلى الحديث، لا سيّما وقد علَّق سامي تعليقًا بدا له ساذجًا وأقرب إلى السطحيّة وعدم الإلمام، إنَّه مجرد انحياز غير واعٍ إلى ما تردِّده أبواق إعلاميّة تبثّ دعايتها بلا توقُّف ولا بصيرة، اندفع عبد القادر –وهو الهادئ الرزين- فقال موجِّهًا حديثه لسامي كأنَّما لا يحبّ مخالفة أبي مازن الرأي:

- يا ابن النيل يغولون أنَّ مصر والسودان بلدٌ واحد، ولكن للأسف أنتم في الشمال، أي في مصر لا تعرفون شيئًا كثيرًا عن السودان.. السودان ذاته ما هو بلد واحد أساسًا!! السودان غارَّة كاملة.. السودان هو مفتاح إفريغيا كلّها.. عندكم في مصر الناس كلّها واحد.. كلّكم عرب مستعربة، أغلبيّة مسلمة وأقلّيّة نصارى، ومع ذلك تحدث أحيانًا بينكم فتن ومناوشات!! ناس السودان مختلفين جدًّا، تعرف يا ابن النيل كم كانت نسبة الناس الناطغين بالعربيّة وغت خروج الاستعمار؟

يندمج في الحديث يتكلَّم باللهجة السودانيّة ممزوجة

بالفصحى، فينطق القاف نطقاً يخلط بينها وبين حرف الجيم وبين حرف الغين، فتخرج هكذا: (غَاف).. ثبَّت عينه في عين سامي، وسكت ينتظر الإجابة.. مرَّت لحظات، هزَّ بعدها سامي رأسه علامة الفشل في التخمين، أضاف وقد علت شفتيه ابتسامة وقور واستعاد أداءه المتمهِّل في سرد أفكاره:

- الاستعمار ما عنَّا ببعيد يا أخي، رحل منذ نصف غرن تغريبًا.. كانت اللُغة العربيّة تمثِّل أربعين في المائة فغط من ناس السودان! الحين العرب لا يشكِّلون أكثر من ستين في المائة من السكَّان، الجنوب وحده يا أخي يعيش به أكثر من عشرة ملايين، يعني أكثر من ربع سكان السودان مجتمعة، ثمانون بالمائة منهم نصارى، وبعضهم وثنيّون، والباغي مسلمين.. كيف بدَّك تحكم السودان كلَّه بحكومة مسلمة تغنِّن أحكام الشريعة الإسلاميّة؟ السودان أصلا غير غابل للحكم المركزيّ، غير عندكم بمصر أو هنا بالمملكة.. وطوال تاريخه ما عرف الحكم المركزيّ ذو الغبضة الحديديّة.. الحلّ الوحيد للسودان أن

يكون ولايات تتمتَّع بالحكم الذاتيّ مثل أمريكا.. والسياسيِّون من زمن وعوا هذه الأمور، لَكين الاستعمار أراد أن ينفرد الشمال بالحكم ليضمن وقوع النزاعات المسلَّحة فيما بعد.. هذا هو واغع السودان!!

- لكن جون قرنق قائد الجنوب الانفصاليّ عميل معروف للصهاينة والأمريكان..

قال سامي وهو ينظر إلى أبي مازن كأنَّه يستشهد به، قاطعه عبد القادر في ضيق:

- جون غرنغ ما عميل ولا اشنو.. الجنوب مظلوم من الشمال منذ الاستغلال.. همَّشه الساسة، ناس الجنوب أصلا أفارغة من أصول زنجيّة ما لهم علاغة بأهل الشمال إلا النيل، ظُلموا في كلّ العصور، يعانون فغرًا وجهلا ومرضًا وعُزلة، ما حد راضي يسمع شكواهم.. طبيعي يطالبوا بالانفصال.. كون إن الصهاينة يستغلِّوا ثغرة عندك ويحاربوك من خلالها، فده مشكلتك مو موشكل عندهم، والجبهة الشعبيّة لتحرير الجنوب مضطرّة تتعاون مع أيّ حد يمدّ لها يد

المساعدة.. عندكم في مصر رئيس مسلم غال: "أضع يدي في يد الشيطان من أجل مصلحة بلادي" فكيف تحاسب غرانغ لو تحالف مع إبليس ذاته مو مع الصهاينة؟!

- كأنَّك مع الجنوب في الحرب ضدّ إخوانك يا عبد الجادر؟

سؤال استنكاريّ أطلقه أبو مازن، أجابه عبد القادر وهو يهزَّ رأسه وكفَّيه تأكيدًا:

- لست مع الجنوب لَكين أنا مع الحكم الذاتيّ لكلّ جهة من جهات السودان.. الجنوب، دارفور، الشمال.. إذا بغينا سودان موَّحد، وإلا فستنفصل المناطغ عاجلا أو آجلا..

نظر زيني إلى ساعته، وقال:

- الوقت تأخَّر.. دوبنا نروِّح.. وإلا ما نفتح في الصباح يا أبا مازن..

- لا.. فديتكم.. إلا مواعيد دوام المركز تكفون..

قالها أبو مازن وهو يضحك ويتأهَّب للنهوض..

١٠ – مشاكل

– أنا حامل يا سامي.. أنا حامل.. تعالَ شوف والله أنا حامل..

تقولها دعاء وهي تكاد تدور حول نفسها دورة كاملة كراقصة باليه، وجهها يطفر بالسعادة، وقد خرجت لتوّها من الحمَّام، يبدو أنها أجرت التحليل المنزليّ السريع.. انتظر سامي نحو ثلاث سنوات كاملة على أحرّ من الجمر ليسمع هذا الخبر الرائع، كانت أسئلة الأهل والأصدقاء عن الحمل والإنجاب كأنَّها سياط تجلد روحه، حتّى الدعوات الشهيرة التي يطلقها الأهل عبر الهاتف بحسن نيّة، مثل:

– عقبال عوضك..

كلمات مشتعلة تلسع قلبه المشتاق، وكرامة زوجته المتلهِّفة! لا يدرك الناس أنَّ الحمل والإنجاب رزقٌ من الله مكتوب في كتاب، مثله مثل الأجل محتوم.. إمَّا أن يكون التقصير من الزوج أو من الزوجة، في نظر الناس، ويتناثر السؤال المبدئيّ:

– هو العيب منه ولا منها؟

وتشير أصابع الاتّهام غالبًا إلى الزوجة باعتبارها الحلقة الأضعف في السلسلة، أيضًا من وجهة نظر الناس!!

ما زال أهل الزوج يوسوسون إليه أن يتزوَّج من امرأة أخرى متى شكُّوا في قدرة زوجته على الإنجاب، بينما على العكس تمامًا يوصي أهل الزوجة ابنتهم بالصبر على نصيبها متى كان زوجها لا ينجب!

على الشاشات العربيّة بضع سيّدات تتحدَّثن عن حقوق المرأة، فتبالغن في المطالبة بأوهام، وكأنّهنَّ تعشن في كوكب آخر غير الأرض التي يعيش عليها الناس! ففي البيوت وفي الأسر وفي العائلات، وفي كلّ مكان تتحدَّث فيه النساء لا من وراء ميكرفون ولا من أمام الكاميرات، تئدن كلّ حقّ أساسيّ من حقوق المرأة العربيّة.. المرأة لا تحتاج إلى كثير من الترَّهات التي تنطلق في تلك المناسبات الإعلاميّة، وإنّما تحتاج أولى وأوّل ما تحتاج إلى مجتمع لا يحاسبها على رزقٍ مكتوب في السماء ليس لها يد فيه، ولا يسألها:

- لماذا لا تنجبين؟!

ولا يواسيها في كلّ مناسبة، وبغير مناسبة:

- عقبال عوضك!

ستُعلِّم السنوات الثلاث العجاف هذه التأمُّلات لدعاء وسامي معًا.. على أنَّ الطبيبة سُميَّة طبيبة قسم النساء في مستوصف مكَّة، وهو المستوصف الخاص الذي يقع خلف منزلهما، طمأنت دعاء سابقًا بأنَّه لا موانع تعيق الحمل في حالتهما، وأنَّ المسألة مسألة وقت وصبر!

في هذه اللحظة الخاطفة الفريدة يتساءل سامي هل يحمل هذا الخبر المتفائل نهاية حياة مضطربة متأرجحة بين السعادة حينًا والنكد أحيانًا؟! هل هو بداية الطريق ليحلّ التوازن النفسيّ محل التذبذب والتوتّر الذي يسيطر على مشاعر زوجته؟!

تتدافع الخواطر على عقل سامي في سرعة خاطفة، كأنَّ ذكريات وأوجاع ثلاث سنوات تريد أن تفرّ من الذاكرة في فيمتو ثانية، تلك الوحدة متناهية الصغر التي يتحدَّث عنها العالم النوباليّ الفذّ أحمد زويل!

كأنَّ هذا اللون الأزرق الذي يظهر في خطين رفيعين متوازيين على شريحة الاختبار المنزليّ، الذي يبشِّر بإفراز هرمون H C G في بول الزوجة، بمثابة صكّ براءة من عيب لم يكن في الأساس موجودًا فيه أو في زوجته!!

لا يجب على هذه الأفكار المضطرمة المتباينة أن تفسد

بهاء اللحظة

يتقدَّم سامي ويحتضنها.. تتَّسع ضحكة دعاء، تلمح دمعات تفرّ من عينيه، ترفع كفَّها الرقيقة تمسح وجنتيه تهمس:

- أتبكي يا حبيبي؟ ألهذه الدرجة كنت تشتاق ولا تبوح؟!

تنتقل عدوى الدموع الى عينيها، يتردّد في نفسها خاطر:

- كم أنت عظيم يا سامي!! كم كنت تضحك وتجبر خاطري.. توهمني أنَّك لا تريد أطفالا وأنت تحترق!!
- ألف مبروك يا حبيبتي.. من اليوم ممنوع إرهاق نفسك في البيت.. ممنوع الانفعال.. ممنوع التوتّر.. عاوزك بتضحكي دايمًا علشان ربنا يرزقنا بنونو بيضحك وجميل ونسميه باسم..
- وإذا كانت بنت يا سيدي؟!

تسأل كأنَّها توشك على المشاكسة ولكن في دلال، يجيبها بسرعة وهو يضحك:

- نسميها بسمة..
- أنت كده سميّت الولد والبنت.. وده مش عدل..

- طيب سمي إنت ولا يهمك.. أنا متنازل لك يا جميل عن اختيار الاسم.. المهم تقومي لي بالسلامة..

فهل تتخلَّص دعاء من اكتئابها وتوتُّرها النفسيّ والعصبيّ؟!

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

يقول المتولي جملتين بالتبادل يتأكَّد سامي بعد النطق بأيّهما أنَّ مصيبة ما ستتبعها.

- قال لأبيه علِّمني التفاهة.. قالّه تعالَ في التافهة وتصدَّر..

والجملة الثانية:

- كان نفسي أتعلم النذالة ولم أستطع!!

خاصّة بعد هذه الجملة الأخيرة يشمّ سامي رائحة نذالة في الطريق، إن لم تكن إليه، ففي الطريق إلى غيره من العاملين في الفرع! سامي لا يكترث كثيرًا بممارسات المتولي في الأمور الماليّة الخاصّة باقتطاع عمولة من مقاولي الباطن، يوصِّف ذلك كنوعٍ من خيانة الأمانة جزئيًّا، فهو رغم تلك الإتاوة المفروضة على المقاولين يتعنَّت جدًّا في استلام الأعمال منهم وفق أصول الصنعة،

ولا يتهاون عن خطأ ولو بسيط وغير ظاهر، فإتاوته لا تؤثِّر أبدًا على جودة المنتج النهائيّ الذي تقدِّمه الشركة للعميل.. يعتبر سامي هذا النوع من المخالفات بمثابة سلوك شخصيّ معيب لكنَّه محدود الضرر، ضرره الأساسيّ يقع على مقاولي الباطن، وهم قد ارتضوا هذه النسبة من الضرر مقابل القيام بالعمل، فهم شركاء في الخطأ!!

لا يحبّ سامي أن يصبح طرطورًا أو كائنًا سلبيًّا، لكنَّه تعلَّم في سنّ مبكِّرة ألا يخوض معركة بالإنابة.. قد يساعدك إن اعتقد أنَّ الحقّ معك، شريطة أن تخوض معركتك، وأن تطلب منه العون، لكن أن يدفع الضريبة بدلا من متخاذل عن المطالبة بحقّه، فذلك من وجهة نظره نوعٌ من السفَه!! إنَّما الخلاف بينهما عادة ما ينشأ من نظرة كلّ منهما إلى العمَّال ومقاولي الباطن، فهو يراهم أوادم يستحقُّون الحياة الكريمة ما أدّوا واجباتهم، وتوقيع العقوبات الإداريّة عليهم ما قصَّروا.. المتولي يراهم كائنات لصوصيّة خبيثة بالفطرة، مجبولين على الغشّ والخداع وكافّة الآفات النفسيّة والخُلُقيّة، ولذلك فمقاول الباطن لديه مُدان حتّى بعد أن تثبت

براءته!!

يترجم هذا الاعتقاد إلى سياسة ماليّة مجحفة في حقّ المقاول، تجعله يتسوَّل حقوقه وفق بنود العقد! يحاول سامي معارضته بفرض نظام دفعات ماليّة عادل يحقّق الكرامة والراحة للمقاول، مع عدم الانتقاص أو الإخلال بحقوق الشركة أو سير العمل.. يريد سامي للمقاول أن يعمل وينتج وهو راضٍ.. المتولي يريد له أن يعمل تحت حدّ السيف.. سياستان لا تلتقيان أبدًا وليس بينهما نقطة وسط..

سامي ينام مرتاح البال عقب كلّ خلاف يدبّ في الشركة بينه وبين المتولي ورجاله، فهو مطمئنّ إلى نزاهة دوافعه، فهو لا يطلب شيئًا لنفسه من خلال تلك المعارضة المتزايدة لسياسة الفرع.. أمَّا المتولي فإنَّه لا ينام بسبب التوتّر الذي يسبِّبه له سامي، إنَّ كلّ نجاح يحقّقه سامي لدى الإدارة يقابله تقلُّص نفوذه المطلق في الفرع، هو الذي كان يعمل الفرع كلّهُ بكلمة واحدة من بين شفتيه.. كان الكّل في الكّل.. المقاولون الآن يجدون ملاذًا آخر يفضفضون معه، وهذا في حدّ ذاته جريمة في حقّه، وحقّ سُلطته المطلقة، حتّى وإن لم يملك لهم سامي

ضرًّا ولا نفعًا! لا بدّ لهذا الصراع الخفيّ الذي يقوده سامي بهدوء وأدب أن ينتهي، ولن ينتهي الصراع إلا بالقضاء على وجود سامي في الفرع!

يلحظ أبو عصام الصراع الدائر حوله في فرع الشركة بوضوح يهتف لنفسه:

- وهي دي حركة؟!

يتعاطف مع سامي فهو قريب العمر من ولده عصام، يحمل نفس براءته تجاه الناس والأحداث.. أثناء أجازته الأخيرة التي قضاها لدى ولده في بيشة عرف أنَّ عصام يعاني مع كفيله وزملائه بعض ما يعانيه سامي في مقرّ الشركة بمكّة المكرَّمة.. نصحه أبو عصام بالتريّث والصبر والمداراة حفاظًا على لقمة عيشه ورزق ابنته الصغيرة الجميلة نور.. فحفيدته نور باتت قطعة من قلب الجَدّ.. حتّى باتت زيارته لبيشة أحب إليه من العودة إلى زوجته وبقيّة عياله في كفر الشيخ بمصر.. يؤمن بالمقولة الشعبيّة:

- أعزّ الوِلد وِلد الوِلد..

رغم تعاطفه مع سامي فهو ينحاز الى المتولي في الصراع

ضدّه!! فصفّ المتولي أكثر أمنًا ونفعًا ماديًّا له.. فماذا يملك له سامي مقابل الانحياز إليه.. يعرف أبو عصام تمام المعرفة أنَّ المتولي لا يلقي إليه سوى فتات.. لا أحد غير المتولي سيلقي إليه شيئًا.. تُذكِّره كلمة فتات التي نطق بها عصام عرضًا أمامه في زيارته الأخيرة، بأيام عمله وإقامته في القاهرة، وقد كان قريبٌ له يعمل فيها في أحد الفنادق السياحيّة الكبرى على نيل العاصمة، وكان يدعوه والأصدقاء للملمة بقايا الطعام بعد الولائم الكبرى والحفلات الصاخبة، وقد كان هذا الفتات المتبقِّي من لحم وأجزاء الطيور الشهيّة، والحلوى وقطع الكعك (الجاتوه) الفاخر، يكفي لإطعام قرية كاملة!

سيظل ولاء أبي عصام لفتات المتولي أقوى في نفسه من تعاطفه مع براءة سامي وسذاجته!

يوافق أبو عصام على توجيه ضربات استباقيّة صغيرة تكون بمثابة تحذير له من التمادي في العصيان، وكافية في الوقت نفسه لمنع تمدُّد نفوذه داخل الشركة، إطلاق شائعة دخان هنا أو هناك تظلّ ناجعة ومحدودة الضرر كذلك، لكنَّ قطع الأرزاق فلا.. يؤمن أبو عصام

بأنَّ قطع الأرزاق أشدّ وأكبر من قطع الأعناق!

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

يدعو زيني جمعًا من الأصدقاء لعشاءٍ مميَّز بمناسبة ميلاد ابنته الأولى (قرّة عيني) التي بشّره أهله بمولدها في قريته بالقرب من مدينة سولو (سوراكارتا).. ستكون المرَّة الأولى لسامي التي يتناول فيها طعامًا جاويًّا حارًّا.. كان عشاءً فاخرًا في مطعم الدمنهوري للمأكولات الإندونيسيّة بالقرب من مستشفى الرفيع بحيّ النزهة.. تنوَّعت أصناف المأدبة بين ساتي الدجاج، وساتي الجمبري، وأرز مشكّل ببيض العيون، ومكرونة مقليّة، وشوربة مقادم، مع الصوص أو المرق الحارّ المميّز للأكلات الجاويّة، يسأل سامي عن مكوّنات ساتي الدجاج بعدما استساغ نكهته، فيخبره زيني عن خلطة باللوز السودانيّ (فول سوداني)، والنارجيل (جوز الهند)، والزنجبيل، والتمر الهنديّ، والفلفل الحارّ، والبصل، وسكرّ النبات!! إنَّها خلطة أشدّ عجبًا من خلطة البايلا الإسبانيّة! ولم يكن سامي قد تذوّق طعامًا جاويًّا من قبل غير الفرموزا والمانتو التي يعشق شرائها ساخنة مع السلطة الحارّة من مطعم

أخون بحيّ الزاهر –الشهداء- .

صحّحَ أبو مازن تصوّرات سامي قائلا:

- أعتجد إنّ الفرموزة والمنتو جاتنا من بخارى وأفغانستان، مو من جاوا والله أعلم!

يهزّ سامي رأسه في تفهُّم.. يسأل عبد القادر:

- من وين جبت اسم قرَّة عيني يا زيني؟
- من عوايدنا نفتح القرآن على أيّ صفحة من غير تحديد لما يجينا مولود، ونختار من ديك الصفحة كلمة جميلة المعنى تصير اسم المولود.. جدّ البنت فتح القرآن جات معاه سورة القصص.. قرأ: **"وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ"** فاختار قرَّة عيني.

داعبه أبو مازن:

- قرَّة عين مو قرَّة عيني..

يكتفي زيني بالضحك، ويشرد سامي في أيّام ولادة ابنه يوسف، سمَّاه يوسف رغم حبّه لاسم باسم، كان يستمع في سيّارته وهو ذاهب بدعاء إلى مستشفى الولادة إلى تلاوة سورة يوسف، فسمَّى المولود يوسف! كم تمنَّى أن يقيم للأصدقاء وليمة مثل هذه عقيقة للمولود..

سيستعين بصديقه عبد الناصر الذي تعرَّف عليه في أوّل وصوله إلى مكّة، يعمل جزَّارًا ومسؤول قسم الملحمة في مركز عصمت في العزيزيّة بالقرب من حديقة الملك عبد العزيز المفتوحة.. يحتجّ عبد الناصر على إهدار كميّات كبيرة من الأرز واللحم في الولائم والعزيمات بسبب الإصرار على تقديم الوجبات الخليجيّة مثل المندي والبرياني والسليق والكوزي وغيرها، ويقترح شواء الذبائح –الطلي- أي الخروف على هيئة كباب وكفتة، ويتمّ تقديم كميّة مناسبة لكلّ فرد مع الخبز والسَلَطات، بحيث لا تفيض بواقٍ مهدرة للوليمة.. قرَّر سامي أن يقيم عقيقة يوسف على الشواء، ويدعو إليها المتولي وأبا عصام وحسن السبَّاك ومحيي الدين الهنديّ وغيرهم من رفاق فرع الشركة، بالإضافة إلى عبد القادر وزيني وأبي مازن، وآخرين من المعارف، على أن تكون ضمن رحلة خلويّة في المناطق المفتوحة، كمخطَّط الحمراء، أو منطقة مواقف كُدي، أو في المزدلفة حيث تتَوفَّر في ليالي الجُمع فرصة تأجير وركوب الخيل والسيسي والجِمال والدبَّاب الرباعي –درَّاجة نارية رباعيّة الدفع- ممَّا يضفي روح المرح والترفيه على الأطفال

والشباب.. ما ينتظر سامي عند ولادة يوسف لم يكن أبدًا في حسبانه!

❖❖❖❖❖❖❖❖❖

بات من المعتاد أن يقضي سامي أمسياته بشكل أكثر كثافة وأطول زمنًا بعد الذي كان من دعاء، كأنَّه يهرب بشكل محموم ممَّا هو فيه في مركز عصر الكمبيوتر، بدأ أمر اهتمامه بصيانة الأجهزة على سبيل تطوير هوايته وتدعيم كفاءته للقيام بصيانة أجهزة كمبيوتر فرع شركته بشكل أفضل.. شيئًا فشيئًا بدأ يتمرَّس في أعمال الصيانة، حتّى عرض عليه أبو مازن العمل في المركز نظير أجر. قال:

- تدري يا أبا يوسف الهرجة ما تبغي حيا وأنت داحين صارت لديك التزامات وشغلات الله يعينك عليها.. حجيجي المركز مصروفاته كتير.. كهربا ونظافة وأجور والذي منه.. لكن ودِّي تاخد أجرك عن كلّ جهاز تصلحه..

يعتذر سامي عن تقاضي أجر في المركز، يردّ أبو مازن:

- ترى أخجلتنا يا أبا يوسف وودِّي يكون الوجه في الوجه أبيض.

- بيَّض الله وجهك يا أبا مازن!

مع تزايد العمل ووصول سامي إلى درجة الاحتراف، طلب من عبد القادر التلميح إلى أبي مازن لإعادة فتح الحوار في موضوع الأجر وتمَّ الاتفاق على تقاضي سامي نسبة محدَّدة من دخل كلّ جهاز يقوم بصيانته أو تجميعه.. وبدأ سامي يأخذ مكان زيني في الورشة في أيام دروس المذهب الحنفيّ، وكذلك في فترة عمله في القنصليّة الماليزيّة، أصبح عبد القادر يعتمد اعتمادًا كبيرًا عليه، صنع له نسخة من مفاتيح أبواب المركز، ذكَّرته نسخة المفاتيح بصديقه عبد الرحمن البرماوي الذي ظلّ مختفيًا من مكَّة كلّها، وبات عبد القادر متى انتهى من عمله عندما يأتي موعد انتهاء دوام المركز يذهب ويترك سامي بمفرده حتّى ينتهي من صيانة الأجهزة التي اتّفق عليها.. يدلف سامي لأول مرَّة إلى عمق المجتمع الذي يعيش فيه منذ عدَّة سنوات! لقد عاش كلّ هذه السنوات يشاهد المجتمع من الخارج، حتّى صار يتعامل مع الصندوق الأسود لأسرار المجتمع، فالمجتمع الذي يضنّ بأدقّ أسرار وتفاصيل حياته على أقرب المقرَّبين إليه، في حين يودِعها قلب المعدن المصمت

في جهازيْن شخصيّيْن لا غير.. ويصبح فنِّيّ الصيانة في مراكز صيانة كِلا الجهازين - المهندز كما يطلقون عليه- هو البَشريّ الوحيد المؤتمن على الصندوق الأسود وما يحويه من أسرار وتفاصيل.. القُرص الصلب للكمبيوتر، والذاكرة الداخليّة للهاتف الجوَّال أو المحمول!! أصبح سامي واحدًا من هؤلاء البشر المؤتمنين على الصندوق الأسود للمجتمع.. السؤال التقليديّ الذي يسأله فنِّيّ الصيانة المحترف في أيّ مركز كمبيوتر عند استلام جهاز من الزبون يحتاج إلى صيانة - سوفت وير- وعمل (فورمات):

– الجهاز عليه ملفّات مهمِّة تبغى تحافظ عليها؟

وأيًّا كانت إجابة الزبون، فإن الفنِّيّ الجيّد عليه أن يأخذ نسخة احتياطيّة من البيانات على جهاز خارجيّ، في حالة مركز عصر الكمبيوتر فالوسيلة المتاحة أمام سامي هي نقل البيانات إلى القرص الصلب لجهاز صيانة المركز بعد توصيله بالجهاز بطريقة (slave)، ثمّ إعادة نقلها مرَّة أخرى إلى جهاز الزبون بعد إجراء الصيانة.. تتَنوّع إجابات العملاء، فمنهم من يؤكّد على أهمّيّة البيانات المخزَّنة على جهازه، وبعضهم يبدي عدم

اكتراث، وبعضهم يكون قد خزَّن ملفّاته المهمَّة على الأقسام الأخرى في القرص الصلب مثل (D&E) .. منذ الوهلة الأولى التي تعرَّض فيها سامي لخبايا العملاء المخزَّنة على صناديقهم المعدنيّة السوداء، يقرِّر التمييز بين نوعين من الأسرار، فيحافظ على كلّ ما هو شخصيّ ووثائقيّ مثل الكتابات والرسائل والصور وخلافه، فهذه (الداتا) كلّها يجب من وجهة نظره أن يُقسم على حفظها بأمانة كلّ فنِّيّ صيانة، كما يُقسم الطبيب النفسيّ على حفظ أسرار مرضاه! والنوع الآخر من الخبايا هو (الداتا) القابلة للتداول، مثل الأخبار والمعلومات العامّة والألبومات الغنائيّة والموسيقيّة والأفلام وغيرها، وهذه يراها متاحة للجميع.. بعض هؤلاء الشباب الذين يحفظون ملفّاتهم السرِّيّة على الأقسام الداخليّة للقرص الصلب، لا يدركون أنَّ فنِّيّ الصيانة قد يضطرّ إلى مسح القرص بالكامل وإعادة تقسيمه بطريقة (E Z)، في هذه الحالة ستضيع كلّ البيانات أيًّا كانت أقسام تخزينها، ويلجأ البعض إلى إخفاء ملفّاته السرِّيّة الخاصّة باستخدام خاصّيّة إخفاء الملفات، عندما يريد سامي تحديد الكلّ ونقل كافَّة

الملفَّات بطريقة النسخ واللصق إلى قرص صلب جهاز الصيانة، تظهر له رسالة:

توجد ملفات مخفيّة لا يمكن تحديدها.

سيضطرّ في هذه الحالة إلى إظهار تلك الملفّات المخفيّة أوّلا، عندها يكون قد غاص إلى الأعماق، إلى الضمير الخفيّ لصاحب الجهاز!

دون أن يتعمَّد التلصُّص على تفاصيل البيانات التي تظهر أسماؤها سريعًا على الشاشة أثناء النقل، يعرف نوعيّتها من خلال اختلاف امتدادات تشغيلها، ويلمح بعض أسماء الملفَّات، وما كان مخفيًّا في نظر صاحب الجهاز على مستخدمٍ آخر محتمل، قد يكون أحد أفراد أسرته أو بعض الأصدقاء، لم يعد كذلك أمام سامي!!

في تلك الليلة التي أنهى فيها عبد القادر وزيني عملهما مع موعد انتهاء الدوام تمامًا، بينما ظلَّت لدى سامي ساعة عمل أخرى، ظهر قبل نهايتها على باب المركز شابّ ملهوف يبحث عن مركز صيانة ما زال ساهرًا، وقد بدا عليه التوتُّر رغم مظاهر الترف التي تحيط بهيئته وملابسه وجهازه، يسأل في لهفة:

– أبغى تسوي لي فورمات للجهاز لكن أستلمه في

الصباح.. متى تفكُّون المركز؟

- في التاسعة لكن أنا مابجيش إلا في السابعة مساءً..
- مش ممكن جبل؟

يسأل الشابّ بقلق، يجيبه سامي:

- لا والله..
- أوكيه.. لكن تكفى سابعة بالظبط تلجاني واجف أمام المركز..
- لكن الجهاز محتاج خمس ساعات شغل على الأقل ليمديني تستيب ويندوز وأوفيس وكولكيشن برامج...
- لا عليك فرمت وستب ويندوز وأنا عندي السيديهات هادول في البيت أستبها لحالي..
- فورمات وتنزيل ويندوز خمسين ريال..
- يا مصري راعينا شويّة أنا مو طالب تنزيل برامج وشغلات وحركات..
- أنا مش حأنام قبل ما أخلَّص جهازك والسهر ده له ثمن.
- أوكيه.. أبشر وأنا أخوك.. بس تكفى الله لا

يسيئك عندي ملفَّات مهمّة مرَّررة على الدي والإي بغيتها زي ما هي..

- ولو فيها فيروسات؟
- لا عليك أنا أتعامل معها اتفقنا؟؟

هزَّ سامي رأسه بالإيجاب وأغلق باب المركز عليه من الداخل بعد انصراف الشابّ، مقدِّرًا امتداد العمل بجهازه إلى وقت صلاة الفجر.. يبدأ نقل الملفَّات من الأقراص الداخليّة، تلفته الأسماء الأجنبيّة لملفّات الأفلام، يفتح أحدها من على جهاز الصيانة دون اهتمام أو تدقيق، على سبيل المؤانسة حتّى ينتهي من فورمات الجهاز وتحميل النظام.. يوزِّع النظرات بين شاشة عرض الفيلم وبين شاشة صيانة الجهاز.. الفيلم إنجليزيّ، جودة التصوير مبهرة، فاجأه أنَّ الأحداث تدور في مصر!! تستعرض الأهرامات في الخلفيّة، وتتناول غرفة عمليّات قيادة الجيش البريطانيّ في مصر زمن الاحتلال شدَّه الفيلم، إنَّه تاريخيّ ويتناول مصر! فجأة وبدون سابق إنذار وبشكل أبعد ما يكون عن توقُّعاته، ينقلب الفيلم إلى فيلم إباحيّ في مشاهد فاضحة ومثيرة وكاملة بين بطل وبطلة الفيلم.. تثير المفاجأة دهشته تمامًا، تتوقّف قدرته

على التفكير واتّخاذ قرار حاسم ومناسب، المرّة الأولى في حياته يتعرَّض لمشاهدة فيلم إباحيّ مكشوف، إن أقسى ما اختلسته خائنة عينيه طوال حياته السابقة واختزنته ذاكرته لتحرق مخيّلته مشاهد القبلات الساخنة بين الممثلين!! كان عاجزًا عجزًا كليًّا عن إيقاف تشغيل العرض، ومشتَّتًا ذهنيًّا بالكامل.. يبدو أنَّه سيكمل جزءًا كبيرًا من الفيلم.. الأمر الذي بدا له ضدّ مروءته المركوزة في فطرته والتي ولد بها لتمنعه عن الرذائل.. عوامل تتصارع بين رغبة عارمة في استكمال الاستكشاف إلى نهايته، وبين الموروث الثقافيّ المغروس، يشعر بضغط كبير على مؤخّرة رأسه وشعور بألمٍ حادّ في أعصاب عنقه من الخلف، حالة من الشلل العصبيّ الحقيقيّ تشلّ قدرة عنقه عن الالتفات تصحبها آلام حادّة.. يستغرق الأمر نحو نصف ساعة قبل أن يتمكّن من إغلاق العرض.. يبقى الألم يعصف به فترة طويلة أخرى، لكنَّه يتجلَّد حتّى ينتهي من إتمام إصلاح الجهاز.. يستعرض بقيّة الأفلام دون أن يعرضها.. مجرّد التأكّد من أنَّها كلّها تحوي موادًّا إباحيّة..

تمرّ تلك الليلة عصيبة عليه، هي المرّة الأولى التي

يتعرَّض فيها لمحتوى إباحيّ كامل وصريح في حياته، في مركز عصر الكمبيوتر وعن طريق أجهزة الزبائن من الشباب لن تكون الأخيرة، سيكتشف عالمًا سريًّا مدمِّرًا وخطيرًا.. خاصّةً مع ظهور أفلام الهواة العربيّة، التي تنقل المجتمع في ذهنيّته من مجرَّد مُستهلك للمشاهد الإباحيّة، إلى مجتمع يمارس ذلك السلوك بكثرة – غير متوقَّعة- ويحتفي به حدّ تسجيل اللحظات الحميميّة الشخصيّة!!!

١١ - تعميق جراح

يحلم سامي منذ طفولته بامتلاك سيّارة مرسيدس، الأمر بالنسبة إليه أكبر من حلم.. يدرك منذ البداية أنَّه الحلم المستحيل.. لم يكن يظنّ أو يأمل أن يصبح ثريًّا لهذا الحدّ الذي يُمكِّنه من امتلاك واحدة من أفخم وأغلى أنواع السيَّارات في العالم.. في مكَّة المكرَّمة سيكون قادرًا على تحقيق المستحيل.. سيّارة مرسيدس إس كلاس طراز عام تسعين، تساوي قيمتها في مصر ثروة حقيقيّة، يمكنه اليوم شراؤها بمبلغ أقلّ من عشرة آلاف ريال!! سعادته عندما امتلك المرسيدس لا توصف.. يصحب دعاء في أوّل جولاتهما معًا بسيّارة مملوكة له، يطوف حول مكَّة المكرَّمة عبر الطريق الدائريّ الرابع، ثم يعرج الى ريع بخش عن طريق الأنفاق التي تخترق الجبال بالقرب من أجياد، يعرف طريقًا جبليًّا ممهَّدًا لصعود السيارات، لم يكن جبلا مرتفعًا، مجرَّد ربوة تجعله على ارتفاع من المنطقة المحيطة بضع عشرات من الأمتار.. يبدو له المنظر من هناك في غاية الرومانسيّة، يُبرز فيه قدرته على القيادة

نحو ارتفاعٍ كبيرٍ في طريقٍ جبليّ، كما يُظهر الإمكانيّات الهائلة للمرسيدس.. يسأل دعاء:

- هل حلمتِ يومًا أن تمتلكي مرسيدس تصعدين بها جبلا بجوار حبيبك؟

تغمغم دعاء بكلماتٍ مبهمة.. يكرِّر السؤال بطريقة أخرى:

- هل أنتِ سعيدة مثلي بذلك؟

تجيب هذه المرَّة بوضوح:

- لو امتلكنا هذه السيَّارة في مصر، بالتأكيد كنت سأسعد بها.. أمَّا هنا فالأمر عاديّ لا يدعو للسعادة أو الفخر..

تنطفئ الفرحة على وجه سامي، ويقرِّر النزول بالسيَّارة من فوق الربوة في اتجاه هايبر العزيزيّة بندة..

❖❖❖❖❖❖❖

يستقبل سامي بالمرسيدس حماه وحماته في ميناء جدَّة الإسلاميّ، وقد أقبلا في بداية شهر رمضان لأداء شعيرة العُمرة.. ترحيبه بهما كان طبيعيًّا ومن القلب، فضلا عن اشتهاره بالكرم والأريحيّة وتقديره العميق لأسرة زوجته، رغم تعنُّتها معه في موضوع التوقيع على

مبلغٍ مُبالغ فيه لقائمة أثاث الزوجيّة، بالإضافة إلى إجباره على التوقيع على شيك على بياض، فلم يجد في نفسه عليهما، يظلان بالنسبة إليه أسرة تحاول الحفاظ على مستقبل ابنتها بطريقتهم الخاصّة! يتوقَّع أيضًا أن تُخرج زيارتهما التي قد تطول دعاء من حالة الاكتئاب الحادّ والمتواصل التي تعاني منها، ستسعد يقينًا بتلك الزيارة، ولعلَّ أُمّها تكون أجدر من أيّ طبيب نفسيّ على علاج حالتها المضطربة، قد تُفضفض دعاء لها عن هواجسها، وقد تفيض عليها الأمّ بنصائحها وتجاربها وخبراتها.. قد تطلب منها أن تحمد ربَّها على النعمة التي تعيش فيها، زوجٌ محبّ، وراحة في البيت، وحياة سهلة أقرب للرفاهيّة، وسيَّارة مرسيدس لا يحلم صغار الأثرياء في مصر بامتلاك مثلها!!

❖❖❖❖❖❖❖

يخطِّط لتمديد فترة إقامة صهريه حتّى يؤدِّيا فريضة الحجّ، لم يكونا قد أدَّيا الفريضة من قبل.. يعلم أنَّها مخاطرة غير مأمونة العواقب، فالسُلطات تمنع مثل هذا السلوك، وفي حال ألقت الشرطة القبض على المتخلِّفين من أداء العمرة بعد انتهاء الفترة المسموح لهم

الإقامة فيها بالمملكة، فإنَّ السُلطات تقوم بترحيلهم إلى بلادهم.. وفي حال اكتشاف المتستِّرين على تخلُّفهم، من المقيمين بالبلاد، يتمّ محاكمة هؤلاء المتستِّرين.. مغامرة قد يدفع سامي ثمنًا لها مستقبله في المملكة، فقد يُعاقب ثمّ يتمّ ترحيله من البلاد.. إشكاليّة أخرى لا يلتفت إليها كثيرٌ من المقيمين عندما يُقدمون على هذه المخاطرة، عادة في حالات التخلُّف عن السفر يكون المتخلِّفون - مثل أصهاره- من كبار السنّ يحتاجون إلى رعاية صحّيّة خاصّة، فإذا داهم أحدَهم مرضٌ مفاجئ فإلى أين يلجأ؟! إنَّ اللجوء إلى المستشفيات الحكوميّة أو المستوصفات الخاصّة على السواء يعرِّض المقيم لنفس عقوبة التستُّر، وفي حالة الوفاة - لا سمح الله- تتعقَّد المسائل إلى درجة بالغة السوء!! سمع سامي عن مقيمين اضطرّوا إلى إلقاء جثث ذويهم أمام المستشفيات في الطريق العامّ في جنح الظلام، حتّى لا يتمّ التعرف على شخصيّاتهم، وبالتالي الوصول إلى المتستِّر عليهم من قريبهم المقيم بالمملكة!!

يدرك سامي كلّ هذا ويخفيه عن صهريه وعن دعاء، وهو يلحّ عليهما بالبقاء إلى أداء الفريضة الكبرى!

تنفرد أُمّ دعاء بابنتها وتصيح بها لائمة:

- بقى كده يا دعاء كلّ السنين دي ما تفكروش تنزلوا أجازة؟ إيه ما لكوش أهل في مصر؟
- ما يقدرش ياخد أجازة دلوقت..
- يوه.. يوه.. يوه.. ده بقى له على الحال ده قريّب من خمس سنين يا بنتي!
- مديره مفهِّمه إن اللي حيسيب مكانه في الفرع، الشركة حتستغنى عنه..
- طيب ومتنزليش لوحدك إنت ليه يا أختي؟ مش إنت برضو جيتي له لوحدك؟
- ظروفه مش سامحة..
- ظروف إيه دي يا عبيطة؟ زمانه كانز على قلبه قد كده وبُكرة يتجوِّز عليكِ..
- أبدًا يا ماما الموضوع مش كده خالص.. بالعكس سامي يتمنَّى لي الرضا أرضى..

❖❖❖❖❖❖❖

يصحب سامي والد دعاء إلى الحرم مرَّتين يوميًّا، مرَّة في صلاة الفجر، والثانية في صلاة المغرب أو العشاء وفق ظروف دعاء ووالدتها، يحبّ سامي متى

سنحت ظروف دعاء تناول الإفطار في رمضان في الحرم الشريف، على القهوة العربي بالهيل وأنواع التمور الفاخرة المختلفة، الرُطب كالربيعة، والبلح الأصفر البرحي، والتمر الليّن مثل الصُقعي والسكَّري، والمضغوط الذي يشبه العجوة المصريّة..

تُدهَش أُمّ دعاء من بُسط (سُفر) الإفطار الممدودة، والقائمين على الخدمة فيها يجذبون الصائمين جذبًا ليجلسوا إليهم، فيقدِّمون لهم كاسات الماء البلاستيكيّة مليئة بالتمور الفاخرة مختلفة الألوان والأنواع، وكاسات القهوة، والعصائر وأكواب لبن الزبادي، بالإضافة إلى ماء زمزم.. تلتفت أُمّ دعاء إلى الجالسات حول السُفرة المفرودة، تجد نساءً وفتياتٍ من جنسيّات شتّى، تهمس لابنتها بملحوظات عابرة عن هذه أو تلك، عن ملابس إحداهنّ، أو عن تلك التي تفتح حقيبة يدها القماشيّة وتسكب فيها كوب التمر لتأخذ كوبًا مملوءًا آخر! وعن التي تتناول إفطارها بنَهم، ودعاء تبتسم لها في خجل وتحاول استحثاثها لتكمل إفطارها.. ينطلق النداء لإقامة صلاة المغرب، تهتف أُمّ دعاء في فزع:

– يوه.. هو إحنا لحقنا نكمِّل فطارنا ؟!

تجذبها ابنتها من ذراعها لتصطفّ للصلاة، بينما تقوم فتيات برفع السُّفر بما عليها إلى صناديق القمامة..
تشهق الأُمّ وتهتف من جديد:

- دول يا بنتي بيرموا الأكل في الزبالة وكوبايات التمر مليانة زي ما هي!!

تأخذ دعاء هيئة الصلاة وهي في غاية الحرج..

(الله أكبر)

يقمع صوت السديس بتكبيرة الإحرام للصلاة كلّ احتجاجات أُمّ دعاء، فترفع ذراعيها بالتكبير وتُكمل شكواها لربّها في الصلاة! في طريق الخروج من الحرم إلى حيث مركن سيّارة سامي، تواصل الإدلاء بملحوظاتها الذكيّة:

- هو انتو يا بنتي بتفطروا كتير كده في الحرم؟
- آه يا ماما.. يعني كلّ ما الظروف تسمح..
- جوزك ده عُقر يا بنتي.. بيعمل كده علشان يوفَّر تمن الفطار!!

تعلِّق دعاء في ضيق:

- تمن فطار إيه بس يا ماما؟ سامي جايب تمر بالكرتونة موجود عندنا في البيت.. وبعدين احنا

لسة حنفطر في البيت لما نروّح فراخ ورز وطبيخ!

تسأل الأُمّ في لهجة احتجاجيّة:

- أُمال إيه لازمة الشحططة دي يا بنتي.. عمَّالين نجري ورا العربيّة اللي راكنة في آخر الدنيا؟!
- حاضر يا ماما بكرة حقولوا إنك بتتعبي من المشي ويخلينا في البيت أحسن..
- يوه.. يوه.. يوه.. بيت إيه يا بنتي؟! هو في حد يسيب النعمة دي كلّها؟ دول بيرموا التمر بحاله في الزبالة.. لأ إحنا أولى بيه.. أتعب شويّة في المشي مش مهمّ!! بكرة أجيب معي كيس أسمر كبير آخد فيه شويّة تمر..
- تمر إيه يا ماما اللي حتخديه؟ طيب بس نخلَّص الكرتونة اللي عندنا!!

❖❖❖❖❖❖❖❖

تنتحي أُمّ دعاء بزوجها في ركن الغرفة المخصَّصة لهما في شقّة ابنتها، وتقترب بشفتيها من أذنه كأنَّها على وشك أن تُسرَّ إليه بسرٍّ خطير:

- مش حتشوفلك صرفة مع جوز بنتك ده يا حاج؟!

- صرفة في إيه يا ستي خير اللهم اجعله خيرًا؟

تضرب المرأة صدرها بيدها وهي تتساءل في استنكار:

- هو إنت مش شايف حال البنت عامل إزاي يا كِبد أُمّها؟
- ما لها دعاء يا وليّة؟ أنا شايف حياتها زي الفل.. والراجل مش مقصَّر معها في حاجة.. هو إنتِ فكرك لو عايشين في مصر حيقدر يوفّر لها كلّ الخير اللي هي فيه ده؟!
- صلّي على النبي يا حاج أمال.. أنت بتحسد بنتك على النعمة اللي هي فيها ولا إيه؟
- اللهم صلِّ عليك يا نبي.. أديك قلت بنفسك النعمة اللي هي فيها.. عاوزة إيه تاني؟
- ما عرفش يا حاج.. البنت مش مرتاحة.. مش مبسوطة.. بنتي وأنا حاسة بيها..
- ما تخديش في بالك يا أُمّ دعاء.. إنت بس اللي قلبك واجعك عليها علشان عايشة في الغُربة.. مع إنِّي شايف إن مكّة دي مش ممكن تكون غُربة أبدًا..

❖❖❖❖❖❖❖❖

يومًا بعد يوم يغدو العمل المنتظم في الأمسيات بمركز عصر الكمبيوتر ركنًا ثابتًا في حياة سامي، إنَّها الساعات التي يهرب فيها من مشكلات حياته، ليغرق كُلّيًّا في مشكلات أخرى، هي مشكلات حياة الناس!! لن يفهم المتولي وأمثاله إلا أنَّه يعمل لدى غير كفيله الرسميّ من أجل زيادة دخله الماديّ، وكأنَّه في شركة مثل شركة المقاولات، وخصوصًا في فرع مكَّة الذي يعمل فيه، يحتاج لعمل إضافيّ ليحصل على مالٍ زائد.. إنَّه حتّى لا يحتاج إلى عمل، وإنّما يحتاج إلى بعضٍ من فهلوة، وكثيرٍ من مسح الجوخ للمتولي، وتمشية الحال، وأمر العقل بالبلادة وعدم التفكير، هذه هي السمات المطلوبة ليحصل على زيادات ماليّة متتالية، لن يفهم أحدٌ أنَّه لو قضى الأمسيات وحيدًا في بيته بعد الذي كان، فحتمًا سيصاب بالجنون!!

ومع ذلك تظلّ أعقد المشكلات تأتيه عندما يسهر طويلا في المركز عقب انصراف عبد القادر وزيني، وهو كثيرًا ما يسهر في المركز بعد انصرافهما، ولو تُرك لنفسه، لبات لياليه في المركز، لم يعد يطيق العودة إلى شقَّته! يعمل في هذه الليلة على صيانة جهاز جاءته به فتاة

طالبت بلهفة أن ينتهي من صيانته الليلة، اعتاد على هذا الطلب والإلحاح من معظم الزبائن، لكنَّه يميِّز بين المتلهِّفين المتوتِّرين، وبين الذين يطلبون العجلة من باب العادة لا أكثر!

الجهاز ثقيل جدًّا وعمله بطيء، والقرص الصلب يئنّ وهو يعمل ويُصدر صوتًا خشنًا، كأصوات احتكاك مفصلات.. إنَّه يوشك على العطَب التامّ.. يصل الجهاز بكابل داتا التوصيل بقرص جهاز الصيانة، ويبدأ في نقل عكسيّ للملفَّات المحفوظة.. يتألَّم كما لم يتألَّم منذ عمل بالمركز، أو منذ ليلة الفيلم الذي أصابه بالاكتئاب، فكميّة الأفلام الآثمة المخزَّنة على الجهاز تفوق الخيال، الجهاز مملوك لفتاة، والفتاة على الأرجح لا يمكنها المبيت ليلة دون أن يكون الجهاز في حضنها!!

لم يفقْ من خواطره إلا على صوت الفتاة تقتحم عليه ورشة الصيانة يتبعها فتى صغير، شقيقها على الأرجح - يبدو عليه طالبًا في المرحلة المتوسِّطة- جاء ليقود بها السيّارة الـ G M C الكبيرة الرابضة أمام مدخل المركز.. لا يحبّ سامي ولا أحد من العاملين في المركز أن يقتحم الزبائن ورشة الصيانة، فهي منطقة محرَّمة

بالنسبة إليهم، وهذا شيء بديهيّ معروف، ولذلك فأغلب مراكز صيانة الكمبيوتر تفصل بين قسم المبيعات والإدارة، وبين قسم الصيانة بفاصل قد يكون جدارًا خشبيًّا كاملا أو من الجبسون بورد، به باب صغير يسمح بالكاد لدخول العاملين، أو كما في حالة مركز عصر الكمبيوتر يضع طاولة مرتفعة فاصلة بين القسمين وحاجزة للرؤية حتّى مستوى رأس العاملين تقريبًا، بين القسمين فُرجة ضيّقة تسمح بدخول العامل بجانبه.. والورشة نفسها ضيّقة المساحة، تقتطع منها بقايا الأجهزة المستعملة، والشاشات وطاولة الصيانة أغلب مساحة الحركة تقريبًا، يجد سامي نفسه في موقف محرج داخل هذا الحيّز الضيّق، يكاد إذا تحرَّك حركة عاديّة أن يلامس جسده جسد فتاة ملتهبة، يقف شقيقها سادًّا الفُرجة الضيّقة بين القسمين، تحجب الرؤية التفصيليّة عنه الصناديق الفارغة لأجهزة مهملة، وسامي يخمِّن على وجه التقريب الطريقة التي تفكِّر بها الفتاة، فيزداد ارتباكًا على ارتباك.. تحتجّ الفتاة بشدّة على عمليّة نقل الملفّات بين جهازها وقرص صلب خارجيّ، يطلب منها سامي الخروج إلى قسم المبيعات،

لأنَّ الهواء هنا مخنوق، يبدو عليها أنَّها مصرة على الوقوف داخل الممرّ الضيّق حتّى يستجيب لها وينزع كابل داتا توصيل الأقراص الصلبة، يُفهمها بسرعة وبعصبيّة أنَّه لو فعل في التو سيعطب قرص جهازها الصلب تمامًا، يتحرَّك سامي جهة الفُرجة الضيّقة ليخرج من مأزق من الواضح أنَّ الفتاة عازمة على وضعه فيه، متجاهلا التلامس الحتميّ الذي سيحدث بين جسديهما، أهمّ شيء بالنسبة له الآن هو الخروج في الهواء المكيَّف خارج الورشة، تلاحقه احتجاجاتها، يشرح لها حالة جهازها، ويفهمها الوضع المزري الذي صار عليه القرص الصلب، تشير الفتاة إلى الملفَّات التي ينقلها من جهازها، فيوضِّح لها سلامة الإجراء من الناحية الفنّيّة، تصرّ على أن يمسح أمامها ملفَّاتها المنقولة إلى جهاز الصيانة، وأن يغلق صندوق جهازها لتأخذه وتمضي دون أن يتمّ صيانته، يحمل شقيقها الجهاز إلى السيَّارة وتخرج خلفه من المركز وهي ترطن بعبارات غاضبة متوعِّدة، دون أن تحصل على صيانة الجهاز ودون أن تدفع شيئًا في المقابل!!

يتساءل سامي كيف تُصرِّف فتاة متوهِّجة مثل هذه

رغبتها المتأجَّجة؟! يشغله السؤال حتّى يكاد يحرمه النوم..

لم يعلم أنَّ الفتاة زارت المركز في نهار اليوم التالي وسألت عبد القادر وزيني عنه، فأخبراها أنَّه ضيف زائر ولا يعمل بشكل مستديم في المركز، فحاولت الحصول منهما على رقم هاتفه، بعدما فشلت معهما خرجت من المركز فأخذت رقم صاحب المركز من على لوحته الخارجيّة.. تتَّصل الفتاة بأبي مازن وتروي له قصّة وهميّة عن ملفَّات ضائعة من جهازها الذي أصلحه لها المهندس المصريّ، وتطلب منه رقم جوَّاله لتسأله مباشرة وهي أمام شاشة جهازها لاتّباع الإرشادات التي يمليها عليها.. لن يعلم سامي بشيءٍ من هذا حتّى تصله مكالمة من رقم مجهول، يتبيّن له أنها مكالمة من فتاة ليلة أمس.. لم يكن يتصوَّر أبدًا، أنَّ الأمور ستتعقَّد إلى هذا الحدّ، وبدا له أنَّ المسألة لن تمرّ كما كان يظنّ بسلام!!

❖❖❖❖❖❖❖

ينتهي موسم الحجّ، ويقرِّر والدا دعاء العودة إلى مصر، محمَّليْن بالهدايا والكثير من المشتريات التي أقبلا عليها بنهمٍ محموم بعد أداء الفريضة كأنَّهما في سباق

مع الزمن، حتّى فتكت بما لديهما من ميزانيّة أو كادت، يكتشف الحاجّ أنَّ تذكرة العودة على الباخرة التي حملتهما إلى المملكة، انتهى تاريخ صلاحيّة استخدامها منذ شهر تقريبًا، وأنَّ عليهما الحجز من جديد تذكرتين كاملتين على إحدى البواخر للعودة، يصرخ في وجه أُمّ دعاء:

- كفاية شِرا بقى إحنا معناش فلوس تكمِّل تمن تذاكر الرجوع..
- وحنعمل إيه يا حاج؟! إيه رأيك ناخد قرشين من سامي جوز بنتك؟
- يا ولية خلي عندك شوية دم.. بعد كل اللي عمله معانا ده عاوزه تاخدي منه فلوس تاني؟!
- وحتعمل إيه يا خويا؟!
- يا دوب اللي معانا نحجز بيه تذكرتين بولمان، ولو بقي شيء نشيله علشان الجمارك والمصاريف في مصر..
- أنا بس باقول لو دعاء يعني....

يقاطعها بصرامة:

- يا ولية قلت لك كفاية..

- أمرك يا حاجّ..

يُفهم ابنته أنَّه سيحجز في بولمان الباخرة حتّى يحتفظ بمبلغ مناسب لاحتمالات الجُمرك ولظروف السفر، ولا يشير إلى المال الذي يكاد ينفد بين يديه، يعطيها مبلغًا يكفي بالكاد لحجز ما أراد ويطلب منها بلطف أن تذهب مع سامي لحجز التذكرتين.. تعرض عليه بصدق مساعدة ماليّة ولو على سبيل القرض.. يرفض بشدَّة ويصر على أنَّ هذا التدبير أفضل له..

يفاجئ سامي دعاء ويُخرِج من دُرج خزانته تذكرتين درجة أولى على إحدى البواخر الجيّدة بتاريخ يوم الجمعة الذي حدَّده والدها للسفر.. تدمع عينا دعاء وتشعر بإعجاب مشوب بقلق، تهتف:

- لكن..
- ما فيش لكن.. ابن جايب هديّة متواضعة لوالده ووالدته.. انتهى الموضوع..

تحتدّ:

- بس كده أنت بتحرج بابا.. كأنَّك بتقوله إنه معهوش فلوس.. أو حتضطره لسداد تمن التذكرتين ويمكن يكون مش عامل حسابه..

- أنا بقى يا حبيبتي عامل حسابي كويس.. ما لكيش دعوة بالموضوع ده خالص.
- ولما يسألوني عن التذاكر أقولهم إيه؟
- قولي لهم سامي موصي واحد صاحبه في جدّة وأنا حتصرف..

يضع سامي التذكرتين في كفّ والد دعاء في ميناء جدَّة الإسلاميّ، وقبل التوجُّه إلى صالة السفر مباشرة ومعهما المبلغ الذي كان قد أعطاه لدعاء لحجز تذكرتين، بعد أن حوّله له إلى الجنيه المصري، وهو يقول:

- سامحني يا حاجّ.. ابنكم ما عرفش يعمل معاكم الواجب بسبب ظروف الشغل وكده والتذكرتين دول اعتذار صغير عن التقصير..

يعانقه الرجل ويشدّ على كتفيه وهو يقول في تأثُّر:

- طول عمري باقول عليك ابن أصول يا سامي يا ابني..

تستعرض ذاكرة سامي كلّ الذي كان وهو يتلقَّى اتصالا هاتفيًّا من والده يخبره فيه بأمر القضيّة التي رفعها عليه أصهاره للمطالبة بحقوق ابنتهم دعاء..

وشكايتهم ضدَّه بالشيك الذي وقَّعه لهم على بياض بعد أن وضعوا فيه مبلغ ربع مليون جنيه! ليأمر النائب العام بضبطه وإحضاره، وتفتيش منزل عائلته بحثًا عنه، ثمّ وضعه على قوائم ترقُّب الوصول من السفر، تمهيدًا للقبض عليه حال عودته إلى أرض الوطن!! والمضايقات الشديدة والفضائح التي يلاحقون بها أسرته في كلّ مكان لإجباره على سداد مبالغ وهميّة تفوق قدرته على الخيال!!

تفشل كلّ الوساطات والمساعي للخروج بالمعروف.. يصرخ أبو دعاء:

- ما فيش معروف مع الجدع ده.. لازم أدمَّر حياته زي ما دمَّر حياة بنتي وأصابها بالجنون..
- وهو كان عمل لها إيه بس يا حاجّ؟
- ما ليش فيه.. عمل ولا ما عملش.. يرجَّع لي بنتي صاغ سليم زي ما راحت له صاغ سليم..
- حكمة ربنا يا حاجّ..
- والقصاص كمان من حكمة ربنا.. وربِّ الكعبة اللي أنا زرتها لأجنِّنه وأخليه يمشي يكلِّم نفسه زي ما جنِّن بنتي!

❖❖❖❖❖❖❖

تساومه الفتاة عبر المكالمة الهاتفيّة إمَّا أن يستجيب لرغباتها المحمومة، وإمَّا أن تُبلغ عنه أنَّه راودها عن نفسها، وأنَّه قام بوضع أفلام ماجنة على جهازها لاغتيال براءتها، وإلهاب مشاعرها لإقامة علاقة آثمة معه!! معها عشرة فتيات ستتقدَّمن بالشهادة على أنَّ هذا ما فعله معهنّ عندما جئن بأجهزتهنّ لصيانتها بالمركز!!

تدور الأرض بسامي وهو يتلقَّى هذه المكالمة الصادمة.. لم يعد يحمل له الهاتف سوى الأسوء والأكثر سوءًا.. إنَّ وضعه كلَّه في غاية التعقيد، فعمله في مركز الكمبيوتر يُعدّ مخالفةً صريحة لقوانين العمل بالمملكة، وهو يقيم في عمارة سكنيّة خاصة بالعوائل رغم أنَّه يعيش بمفرده بعدما هجرته دعاء، والمفترض اجتماعيًّا أن ينتقل إلى سكنٍ خاصّ بالعُزَّاب، وأهل مكَّة لا يتهاونون في مثل تلك الضوابط الاجتماعيّة، ولولا معرفة الجيران بأنَّ زوجته في عطلة وستعود، لطالبوا مالك العمارة بطرده فورًا.. والتهمة التي تتوعّدُه بها الفتاة حسَّاسة وخطيرة، وتكفي لتعنُّت السلطات معه ولو كانت بلا أدلة!! لعبة امرأة

العزيز تلعبها على أرضها وبين جمهورها وعشيرتها بمؤازرة رهطٍ من صويحباتها، فهل ضاقت عليه الأرض بما رحُبت؟! وهل من ملجأٍ من الله إلا إليه؟!

❖❖❖❖❖❖❖

يتردَّد محمد سند مقاول الدهانات على مكتب فرع الشركة بمكَّة مُطالبًا بباقي مستحقّاته الماليّة عن أعمال دهانات تمّ الانتهاء منها بمشروع توشك الشركة على تسليمه للمالك، يتعنَّت المتولي كعادته مع مقاولي الباطن، يماطل في اعتماد المستخلص الختاميّ.. يحضر سند يوميًّا إلى المكتب، وأحيانًا مرَّتين باليوم، مكفهرّ الوجه، كئيب القسمات، ومحمد سند أساسًا قصير القامة يبدو إجمالا في هيئة البرماويّة وليس المصريّين.. يداعبه الزملاء متسائلين:

- أنت سند قبض؟!

يبتسم في تعاسة ويجيب:

- طول عمري سند صرف.. نفسي أكون سند قبض قبل ما أموت..

يقسم لسامي أنَّ والده مريض على فراش الموت، وهو يريد باقي مستحقّاته الماليّة لينزل أجازته حتّى يلحق

أباه قبل أن يفارق الحياة! يلحظ سامي رنَّة الصدق في لهجة سند، يتعاطف ثمّ يتحمَّس كعادته، يطلب من المتولي سرعة اعتماد المستخلص ليلحق سند أباه.. يزداد المتولي تعنُّتًا، يقول لسامي أنَّ سند كذَّاب مثل بقيّة الصُنَّاع والعمَّال.. يتحدَّاه سامي:

- ولو كان سند صادقًا من يتحمَّل وزره؟
- الأعمار بيد الله.. لا تشغل بالك بهذه الأمور.

يغيب سند عن زيارة المكتب يومين متتاليين، يشعر سامي بارتياح ضميره من إلحاح سند وعجزه عن المعاونة.. عندما سيظهر سند في اليوم الثالث بوجهٍ كابٍ وعينين حمراوتين، وقد زاد انكسارًا على انكسار.. يسأله سامي بوجلٍ عن سبب غيابه، وهو يخمِّن أنَّه مريض، فاجأته قسوة الإجابة:

- أبويا مات يا أستاذ سامي!!

أحيانًا يتكلَّم الدمع ولو تحجَّر في العيون، وتخرس الألسنة، وتنحشر الصرخات في الصدور!! عندها لا يجد سامي مفردات يقدِّم بها واجب العزاء.. لا تعاطف، لا حزن، لا رثاء.. فقط الغضب المكلوم العاجز هو الذي يسيطر عليه.. يصبّ محمد سند مزيدًا من الملح على

الجرح المفتوح:

- **مش ممكن أسامح المتولي.. الراجل ده منعني أشوف أبويا لغاية يوم القيامة.. أبويا كان حيموت في نفس الدقيقة اللي مات فيها ده مكتوب عند ربنا.. لكن لو كان عند المتولي قلب كان زماني شفت أبويا وبُست إيديه قبل ما يموت!!**

كلّ شيء بعد هذه الجملة ظلّ باردًا مثلها، سند لم يكن غاضبًا، فقط بدا منكسرًا وخانعًا، بلا أمل ولا طلبات.. لم يُرَ سامي غاضبًا ولا عنيفًا مثل ذلك النهار في مقرّ الشركة، عندما حضر المتولي، اقتحم عليه المكتب وقال بقوّة:

- **نصحتك أن تصرف لسند جزءًا من مستحقّاته ليستطيع النزول لمصر.. مات أبوه.. هل أنت الآن مرتاح الضمير؟!**

حاول أبو عصام بعد ذلك احتواء الموقف واحتواء سامي، لكنَّه أجابه بأنَّه لن ينام مرتاح الضمير منذ اليوم لأنَّه صار شريكًا في تلك المظالم!! لم يكن يعرف ما يخبِّئه له القدر مع المقاول سند في قادم الأيّام..

❖❖❖❖❖❖❖

تنتهي الفتاة من مكالمتها العاصفة بكيان سامي، ولا يتوقَّف صوتها عن الفحيح في أذنه.. لمن يلجأ؟ لن ينصفه أبو مازن، فبالتأكيد هو لا يريد إثارة شبهات حول مركز الكمبيوتر الذي يملكه.. سامي بالنسبة إليه مجرَّد صديق، حتّى عمله في المركز لم يأخذه على محمل الجدّ، رآه مُحبًّا لصيانة الحاسوب، فساعده على إشباع هوايته وقتل الوقت الذي ينهشه بعد مأساته مع دعاء، عبد القادر وزيني لا يملكان أكثر من كلمات المواساة، من يملك القوّة والسطوة لينقذه من هذا البلاء؟ يجلس في غرفة إمام المسجد بعد صلاة المغرب يروي له الموقف كاملا.. إمام المسجد بلحيته الكثَّة وغُترته البيضاء، والمهابة التي أُصبغت عليه بفضل حفظه للقرآن الكريم، وبفضل تقدِّمه في العمر، كان رجلا عرق الحياة، وخبر خبايا النفس البشريّة، يعرف سامي بالشبه من تكرار تردُّده على الصلاة بالمسجد، لا سيّما في صلاة الفجر حين لا تتجاوز صفوف المصلِّين صفًّا واحدًا، يصطفّ خلف الإمام في وسط المسجد، تاركين النصف الأماميّ من المسجد خاليًا، وهي عادة لاحظها سامي في معظم مساجد مكَّة المكرَّمة!! رغم

المهابة التي تجلِّل وجه الشيخ، فإنَّ الابتسامة الهادئة لم تفارقْ شفتيه طيلة استماعه إلى رواية سامي، في نهايتها يشدّ على كفِّه، ويعده خيرًا.. فيما بعد يتلقَّى سامي اتّصالا من شخصٍ يتبيّن في لهجته ومحادثته المختصرة أنَّه من جهة أمنيّة، يحدِّد له موعدًا للقاء به في مركز الكمبيوتر بشرط أن يكون بمفرده، وقبل أن يتسرَّب الشكّ إلى نفس سامي يهمس المتّصل باسم الشيخ عبد الله إمام مسجد الحيّ، فيطمئنّ قلب سامي ويحدِّد له موعد اللقاء.. في مساء ذات اليوم ورغم أنَّه لم يكن هناك أيّ عمل لسامي على الإطلاق، يريد أن يتخلَّف عن عبد القادر وزيني لموعده المرتقب.. يقترح عبد القادر أن يقضوا الأمسية معًا وأن يتناولوا العشاء.. يتململ سامي ويعتذر متعلّلا بأنَّه يريد تنزيل بعض البرامج من على الإنترنت.. يكاد عبد القادر الذي لم تكن لديه رغبة في العودة إلى بيته، أن يقرِّر البقاء معه هذه الليلة، يحبس سامي أنفاسه ويشعر بضيق مفاجئ هل يشكّ عبد القادر فيه؟ هل بلغه شيء من المتوقّع حدوثة الليلة؟ هل يريد أن يحدِّثه في أمر فتاة الجهاز؟ يرنّ هاتف عبد القادر، يخرج للحديث أمام واجهة المركز، تمرّ الدقائق

ببطء على نفس سامي، ويطلّ عبد القادر من باب المركز ليقول وعلى وجهه ابتسامة اعتذار:

- معلش يا ابن النيل حابب أسهر معك.. لكين واحد من الجماعة جاء من البلد ولا بدّ أن أستغبله..

يتنفَّس سامي الصعداء وهو يتبادل عبارات المجاملة مع عبد القادر..

بعد فترة تتوقَّف سيّارة كبيرة تحمل شعار هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمام المركز، يترجَّل أربعة مطوِّعين يتقدَّمهم رجلٌ أربعينيّ سأل سامي عن هويّته بلطف لكن بحزم.. يطلبون منه إنزال الباب الحديديّ للمركز من الداخل، ويتولُّون إدارة أجهزة الكمبيوتر الموجودة في المركز، يفحصون الملفَّات المخزَّنة في سرعة ودِقَّة.. يدرك سامي أنَّ المركز يتعرَّض لتفتيشٍ دقيق.. بعد نهاية العمل يعتذر منه الرجل الأربعينيّ اللطيف ويُفهمه أنَّ هذا كان إجراءً احترازيًّا واجبًا للتأكّد أوّلا من سلامة موقف المركز تمامًا، وكذلك سلامة موقف سامي شخصيًّا.. يطلب منه بشكل ودود للغاية فحص جهاز حاسوبه الشخصيّ الموجود بمنزله بعدما يصرف

رفاقه شاكرًا.. رغم امتعاض سامي لم يعترض، يقوم بإغلاق المركز ثم يصحب المطوِّع الذي رفض أن يعرِّف نفسه إلى منزله، طمأنه المطوِّع في أدب أنَّه لن يطَّلع على خصوصيّات شخصيّة لسامي على الجهاز.. مجرَّد (سيرش) سريع على امتدادات تشغيل الفيديو المختلفة وقراءة أسماء الملفَّات.. فتح ملفَّين بطريقة عشوائيّة للتأكّد من مطابقة عنوان الملف لفحواه.. ميول سامي التاريخيّة والدراميّة، وكذلك ذائقته الشخصيّة بدت واضحة على نوعيّة الملفَّات المخزَّنة على حاسوبه.. شكره المطوِّع مرَّة أخرى وطلب منه اصطحابه إلى الطريق، ثم أخبره أنَّه الآن يثق فيه تمامًا وسيساعده.. سيسير الأمر بشكل غير رسميّ وعليه مجاراة الفتاة عند اتّصالها به.. لاحقًا سيدرك سامي أنَّ هاتفه مراقب!

سيخبره الشيخ عبد الله بعد عدّة أيام أنَّ المطوِّع راقب الموضوع بنفسه ومن ثمّ تأكَّد من كذب ادعاءات الفتاة، وأنَّها من تطارده لإيقاعه في حبائلها، وتمّ الاتّصال بها بصفة ودّيّة وإبلاغها بانكشاف أمرها ونُصحها بالإنابة، مع زجرها بأنَّ الاتّصالات القادمة ستكون مع ذويها.. يفهم سامي الآن سرّ التوقُّف المباغت لاتّصالات الفتاة..

يشعر براحة عميقة مشوبة بحسرة دفينة على انتهاء حسّ المغامرة الذي تدفَّق بداخله طيلة الأيّام العصيبة الماضية!!

❖❖❖❖❖❖❖

لم تتحسَّن حالة دعاء النفسيّة بعد الحمل كما توقَّع سامي.. على العكس تزداد حالتها تدهورًا مع الأيّام!

تتعارض أغلب مضادَّات الاكتئاب مع الحمل وصحّة الجنين.. كما ستتعارض لاحقًا مع الرضاعة.. ينصح الأطباء سامي بمزيد من الصبر والاحتواء وكثير من التدليل.. يظنّ سامي أنَّه يفعل الكثير في ظلّ ظروف عمله وأوضاعه الماليّة.. يصحبها في رحلات ترفيهيّة إلى كورنيش جدَّة ليالي الجُمع.. يوزِّع أيام الجُمعة خلال الشهر إلى نزهات متنوِّعة.. يقضيان نهار جمعة على شاطئ أبحر يجلسان على الرمال البيضاء الناعمة، ويسيران على طرف الشاطئ بحيث تلاعب أمواج البحر أرجلهما.. وفي نهار جمعة أخرى يخرجان معًا إلى الطائف، يسلك طريق طلعة الهدا على ارتفاعٍ شاهقٍ من مكَّة.. يقف بالسيَّارة حيث أماكن تجمّع القردة

وكأنَّها تعيش في محميّات طبيعيّة، فترة من الزمن قبل أن يأخذ طريقه إلى الطائف، يزوران حديقة الحيوان، ويجلسان في المنتزّهات المفتوحة.. ويركبان الترفليك بين الجبال الشاهقة إلى مدينة الملاهي المائيّة! تتشبَّث به دعاء في التلفريك تهمس:

- أخاف من ركوب التلفريك أكثر ممَّا أخاف من ركوب الطائرة..

يعودان في المساء إلى مكَّة سعداء منهكي القوى.. في جمعة تالية يقضيان الأمسية بالكامل في الحرم، يتطلَّعان إلى الكعبة، يهمس سامي:

- يقولون أنَّ النظر إلى الكعبة عبادة..

وفي جمعة آخر الشهر يذهبان إلى شاطئ الشعيبة حيث صخب البحر وهدوء المكان حد الخلوة!!

كلّ هذه الجهود تكاد تذهب سُدى.. بمجرّد العودة إلى المنزل تنطفئ الحيويّة التي أحاطت دعاء بالنهار، تختفي الابتسامة التي زيّنت وجهها.. كأنَّ المنزل بالنسبة لها سجن منيع وسامي هو سجَّانها!

تتعقَّد الحالة حتّى تبلغ حدّ الاستحالة بعد ولادة يوسف مباشرة.. تتطوَّر الحالة النفسيّة إلى حالة عضويّة

تصيبها بشلل نصفيّ لعدَّة أيّام، وعندما تنتهي نوبة الشلل، تصيبها نوبات هياج حادّ.. ينصحه الأطباء بضرورة ملازمة مرافق لها طيلة اليوم، وأن تظلّ تحت الملاحظة.. انفرادها بالمولود فيه خطورة على حياته، وعلى حياتها أيضًا.. لا حلّ إذن إلا عودتها للإقامة مع عائلتها بمصر.. حتّى في هذه الحالة لا يجب أن تكون مسؤولة عن رعاية وليدها.. يوسف يجب أن يظلّ في رعاية إحدى جدَّتيه، ويجب أن يعتمد على الرضاعة الصناعيّة.. سيكتبون لها تناول عقاقير تجفِّف صدرها من لبن الأُمّ حتّى لا يؤلمها ويزيد من معاناتها!

يستميت سامي في الحيلولة دون تنفيذ أوامر الأطباء.. يدركها في لحظة هياج وهي تحاول خنق يوسف!!

سيظلّ المشهد مرعبًا كفاية لأن يلتزم سامي بالأوامر الطبيّة.. يمهِّد الأمر لوالدها بألطف العبارات الهاتفيّة الممكنة.. يتذكَّر وهو يودِّعه على الهاتف كيف شدّ على كتفه في ميناء جدَّة ووصفه بالأصالة!

❖❖❖❖❖❖❖

لم يلتزم سامي بالعمل المسائيّ في مركز عصر الكمبيوتر إلا بعد مغادرة دعاء ويوسف حياته.. عندما

طلب والدها منه تطليقها ماطل طويلا من أجل أملٍ ما لن يأتي أبدًا.. سيقرِّر ترك العمل نهائيًّا بالمركز عقب واقعة الفتاة، إذ يدرك أنَّه الحلقة الأضعف في معادلة مركز عصر الكمبيوتر.. مرَّت المسألة هذه المرَّة بسلام، فمن يدريه ما يخبِّئه له القدر في مرَّاتٍ قادمة..

سيقرِّرون في مقرّ الشركة الرئيسيّ بجدَّة منحه علاوة استثنائيّة مع زيادة راتبه دون أن يطلب.. المهندس سعد بهلول شخصيًّا سيعتمد الزيادة تقديرًا له على كفاءته وإخلاصه.. لم يفرح بخبر العلاوة عندما بشرَّه به الأستاذ حامد السوداني!! توجَّس خيفةً من المتولي! يدرك أنَّ الزيادة الاستثنائيّة تقديرٌ مبالغٌ فيه من الشركة، سيفوق قدرة المتولي على كظم الغيظ وستظهر أحقاده!! يوقن سامي بأنَّ لدغة المتولي قادمة لا محالة وراء كلّ ضحكاته الصفراء وكلماته البلهاء، الحيّة الرقطاء الساكنة بصدره تنتظر فقط كلمة السرّ لتمرّ إلى قلبه.. رغم كلّ محاذرته سيمنح المتولي كلمة المرور عن طريق سند، عندما يأتيه هذه المرَّة باكيًا! فزوجته محجوزة في المستشفى بالمرض اللعين، يريد أن يلحقها قبل أن.... يصمت محمد سند وتهاتفه

زوجته من مصر تطلب محادثة المدير الماليّ والإداريّ للفرع، يمرِّر سند الهاتف إلى سامي الذي يستمع إلى توسّلات زوجة تتألَّم وتحتضر.. لن تجدي هذه المرَّة مطالبته للمتولي.. المستخلص الختاميّ للمشروع الأخير كان قد تمّ اعتماده وإرساله إلى المقرّ الرئيسيّ، تحول السيولة الماليّة دون الصرف، وعندما تتوافر السيولة يطلب المتولي مستحقّات بعض مقاولي الباطن متجاهلا محمد سند.. سيطلب سامي من الأستاذ حامد اعتماد الصرف لسند ضمن كشف هذه الدفعة.. يرى حامد أنَّ الصرف مستحقّ فيستخرج الشيك باسم محمد سند.. تثور ثائرة المتولي ويعلنها حربًا شعواء، يكاد يقدِّم استقالته ويترك مشاريع فرع مكَّة مفتوحة إن لم يستجب المهندس سعد بهلول لطلبٍ واحد.. هو منح سامي تأشيرة خروج نهائيّ!!

تمَّت